تعظيم سلام!

مجموعة قصصية

نجلاء محمود محرم

الغلاف واللوحات الداخلية للفنان

محمد عسل





فليُلقِها بحجر !

لم يكن انتقال أسرة " أمين مفتاح " إلـى سـكنها الجديـد بالشئ العادى الذى يمـر علـى الجـيران دون أن يسـترعى انتباههم .. فقد وصلت السيارة التى تحمـل الأمتعـة عصـر يوم جمعة .. وانتشر أولاد " أمين " على السلم يتصـايحون .. ويطلعون وينزلون .. ويحملون الكراسى والحلل وألواح الأسـرة والوسائد .. محدثين جلبة عظيمـة أيقظـت النـائم وأنعشـت الكسلان .. بينما كان هو يقف أمام العمـارة .. ينـادى علـى زوجته كل حين ليسألها : هل تريد تلك القصريـة المشـروخة أم يرميها ؟ والحلة السوداء التى أحرقت فيـها سـكر الكنافـة هل مازالت تصلح للاستخدام ؟ ويطلب منها أن تغـير ملابـس الولد الصغير لأن هناك رائحة كريهـة تفـوح منـه ! بـدأت الرؤوس تطل من النوافذ .. والمرافق تتكـئ علـى أسـوار الشرفات .. والأعين ــ كل الأعين ــ تحمل تعبير الصدمـة .. إلا أعين أسرة " أمين مفتاح " التـى كـانت نظراتـها تفيـض بِشْراً خاصة إذا تلاقت مع نظرات الجيران الجدد !

استغرق تفريغ سيارة " العفش " أكثر من ثلاث سـاعات .. فأشياؤهم كلها وُضِعَتْ فُرادى .. ولم تعبأ لا فى كراتين ولا فـى أكياس .. حتى الملاعق والملابس وأقلام الأطفال وعلب الـدواء بُعْثِرَت كالفلفل فوق اللحم المفروم !

ولما تم إفراغ السيارة وأُغلِقَ الباب على السكان الجـــدد .. كان الفارق بين حالة الابتهاج والارتياح فى شقة " أمين مفتاح " وبين حالة الوجوم والتوجس في باقى الشقق كبيرا للغاية .

تجنب السكان جارهم الجديد .. لكن آذانهم تحولــــت إلـــى أطباق تستقبل أى صوت يصدر مـــن شـــقته .. فيتســـمعون .. ويتغامزون .. ويضحكون .. ويلتقون فى اليوم التالى ليحكـــى بعضهم لبعض ما سمعوه وهم مندهشون ..

وحين أرسل أمين مفتاح إلى جاره الملاصق له فى الشـــقة يخبره بأنه يريد أن يزوره زيارة تعـــارف .. ضـــرب الجـــار أخماسا فى أسداس .. ونصحته زوجته بأن يرقد فـــى الفـــراش ويمتنع عن الكلام وحين يأتى الزائر تخبره بمرضـــه المفـــاجئ فلا يكون هناك مجال لتعارف وينصرف دون أن يحملهم مشـــقة تحمل زيارته .. وجاء الزائر على وجهه ابتســـامته الهادئـــة .. وانصرف سريعا بعد أن تمنى لجاره الشفاء .. وانتابت الجـــار حالة ابتهاج بنجاح الخطة وجلس مع زوجته يضحكان بعـــد أن انزاح هذا الكرب .. ولم يتحوطـــا وتركـــا النوافـــذ مفتوحـــة والأصوات تنتقل عبر منور العمارة مـــن شـــقة لأخـــرى فـــى وضوح تام ..

رنَّ جرس الباب وفتحت الزوجة فوجدت " أمين مفتـــاح " أمامها .. بُهِتَتْ وتلعثمت .. لكنه قال لها بابتسامة وبساطة :

ـــ كان يكفى أن تعتذرا عن اســـتقبالى .. أمـــا أن تكذبـــا وتتندرا بنجاح خطتكما بجوار نافذة المنور فذلك ســـلوك نـــاس أغبياء ..

وعرف الجيران ما جرى .. ولم يحاول " أمين مفتاح " بعد ذلك أن يزور أحدا منهم .. وظل على صراحته الغريبـــة فـــى الحديث معهم حين يقابلهم على السلم .. لدرجة أن جـــاره فـــى

الشقة التى تعلو شقته دخل على زوجته ودمه يغلى لِمَا قاله لــه " أمين " على السلم .. لكن زوجته غرقت فى الضحــك حتــى دمعت عيناها .. وسألته لتتأكد :

ــ أوَ كان أطفاله حقا يظنون أننا نربى عجلا ؟

رمقها زوجها بعين ساخطة .. لكنها تجاهلت نظرته ..

ــ سبق أن نبهتك بأنك تتجشأ بصوت كخــوار العجــول حقا !

صرح " أمين مفتاح " لجيرانه بكل مايجيش به صــدره .. فأخبر جاره بالطابق الأرضى أن عليــه أن يشــترى غيــارات داخلية بدلا من تلك الممزقة التى تنشرها زوجته على الحبل فى الشارع ! وقال لساكن الطابق الخامس أن زوجته لاتشــتم أولاده إلا بعيوبه .. وأنه لايراه حمارا ولا غبيا إلى تلك الدرجة التــى يصير بها سبة لأبنائه ! أما ساكن الطابق الأول .. فقد صرح له " أمين " بأن السبب فى أن مالك السيارة الزرقاء يتجاهله كــل يوم لكى لا يوصله إلى العمل رغم أنهما زملاء هو أنــه ثقيــل الظل .. ونصحه بأن يخفف من ثقل نظراته وأن يصافح النــاس بحرارة وألا يرفع " بنطلونه " إلى صــدره هكـذا وألا يلبــس الأحذية البيضاء !

أصبح لقاء " أمين مفتــاح " كارثــة يفــر منــها جميــع الجيران .. وانعقد مجلس المتأذين منه لمناقشة الوضع واتخــاذ التدابير اللازمة وكانت تلك المرة الأولى التــى يجتمــع فيــها السكان بل إن منهم من لم يكن قد رأى بعض جيرانــه بعــد .. وتوالت الاقتراحات :

ــ ندق على سقف شقته وعلى جدرانها حتى يضج

ــ نلقى فى منور العمارة بالقمامة والحيوانات الميتة

ـ نرفع صوت المذياع فلا يستطيع نوما ولايستطيع أولاده أن يذاكروا

اقتراحات هزيلة .. تؤذيهم كما تؤذيه

لكن الجار الخبيث تنحنح وطلب إليهم أن يسمعوه .. اتجهت إليه العيون المتعطشة للانتقام .. فسألهم :

ـ ما الذى يضايقكم من " أمين مفتاح " ؟

دهشوا .. ثم انفجروا في صوت واحد يستنكرون سؤاله .. قال :

ـ حاربوه بمثل سلاحه ..

ران صمت على المستمعين فاستكمل :

ـ تصيدوا له المعايب .. اجعلوا آذانكم وأعينكم رادارا يرصد كل تصرفاته .. ولابد ستجدون ما تهددونه وتحرجونه به ..

تفرق المؤتمرون بعد أن اتفقوا على خطة المراقبة .. وحددوا المواعيد .. وطرق الاتصال .. وبدأ تنفيذ المخطط .. وصارت معظم حركات وسكنات وكلمات أسرة " مفتاح " مرصودة من جيرانه .. كان هناك من يتبعه وهو ذاهب إلى عمله .. ومن يحوم حول مدرسة أطفاله .. ومن يجمع أخبار زوجته .. وكان " أمين مفتاح " يرى أطياف جيرانه المختبئين خلف خصاص النوافذ يتسمعون عبر المنور ما يدور في شقته .. وأخبرته زوجته أنها ترى من عقب باب الشقة ليلا أقداما تروح وتجئ و تمكث بعض الوقت .. وقالت له أنها خائفة .. تربصا ليلا حتى ظهرت الأقدام خلف باب الشقة ففتحاه فجأة فوقع جارهما ثقيل الظل قاعدا مادا ساقيه فدخلت قدماه بالحذاء الأبيض من باب الشقة .. مرّتْ لحظات دهشة حدقت فيها الأعين بجمود .. ثم نهض الجار صاعدا السلم .. وأغلق الزوجان بابهما ..

في الصباح التالي كان " أمين مفتاح " واقفا في انتظار جاره ثقيل الظل .. وما أن رآه نازلا حتى توجه إليه وقال له :
ــ هذا الصوت الذي تسمعه ليلا هو صوت ماكينة " التريكو " التي تعمل عليها زوجتي .. فالحياة صعبة ولابد من توفير نفقات الأطفال ..
واصطحبه " أمين " إلى شقته وفرَّجَهُ على الماكينة وأسمعه صوتها !

وحين انعقدت جمعية المتأذين من " أمين مفتاح " وأذيع سر الأصوات الغامضة التي تنبعث من شقته ليلا .. خاب أمل المجتمعين لأن الأصوات ما كانت تصدر عن مطبعة لتزييف النقود أو الأوراق الرسمية أو أي شئ مما كانوا يتمنون !

واستمرت طريقة " أمين مفتاح " كما هي .. ولم يتردد في أن يخبر إحدى جاراته بأن " شبشبها " الذي تلبسه وهي راجعة كل يوم قرب الفجر يدق على السلم وأن زوجها قد يصحو على هذا الصوت .. وأنه يجب عليها وضع قطعة فلين في طرف كعبه العالي ما دامت تحرص على ألا يتنبه زوجها لخروجها بعد نومه !

لكن الجار الأعزب الذي يحمل حقيبة سوداء ويضع على عينيه نظارة سوداء لم يكف عن مراقبته المفضوحة .. واشترى نظارة معظمة وصار يلاحقه باستمرار ..

وفوجئ السكان بورقة بيضاء ملصقة في مدخل العمارة تحمل توقيع " أمين مفتاح " مكتوب فيها أنه يرجو جاره صاحب النظارة المعظمة ألا يتجسس عليه بواسطتها .. لأنه هو وزوجته وأطفاله ليس لديهم ما يكفي من الملابس المنزلية وقد يسوؤه ما يراه بنظارته !

وبتعاقب الأيام واستمرار المراقبة أخرجت زوجة " أمين مفتاح " موقدها أمام باب الشقة وصارت تطهو الطعام أمام الصاعد والهابط .. وفى كل يوم يعلق زوجها ورقة عليها خط سيره وما حدث له فى اليوم السابق .. حتى أطفالهما كتبوا بخطهم الصغير محتويات الشطائر التى فى حقائبهم ودرجاتهم الدراسية وألوان ملابسهم الداخلية !

وفوجئ ساكن الطابق الخامس " بأمين مفتاح " يخبره بأنه أدرك السبب فى أن زوجته تعتقد أنه حمار .. وهذا لأنه حين اختلس مرتبات الموظفين من خزينة الشركة وادعى أنه هوجم .. وافتعل شريكه به اصابة .. ضحك عليه هذا الشريك واستأثر لنفسه بالمبلغ المسروق كله .. وأوصاه " أمين " بزوجته وبأن يلتمس لها العذر .. فهذا فعلا غباء حميرى صرف !

كثرت الملصقات وصارت تغطى كل يوم مدخل العمارة بالكامل .. وتُنْزَعُ فى اليوم التالى لتلصق غيرها .. وعرف الجميع كل ما يدور فى شقة " أمين مفتاح " .. فى غرف النوم وفى الحمام .. وعرفوا مايحدث فى عمله وفى مدارس أولاده .. وماذا اشترى وكم دفع .. وكيف أهين وكيف وقع وكيف جُرِحَ اصبعه .. وأن القشرة انتشرت فى شعره .. وأن الولد الصغير مصاب دائما بالإسهال .. وأن زوجته لديها تشوه فى فخذها من حرق قديم بماء سلق المكرونة ! بل لقد بدأوا يؤرخون لماضيهم وماضى أسرهم .. ولم يتركوا سقطة قديمة أو حديثة إلا وذكروها .. وصار الناس يأتون من العمارات المجاورة ليقرأوا ويندهشوا ويضحكوا .. ومنهم من ينتظر فى الشارع ليرى الأسرة العجيبة أو أحد أفرادها !

لذلك انتاب الجميع ذهول شديد حين أصبح صباح ولم يجدوا أى ملصق على جدران المدخل ! ولولا أنهم

رأوا بالنظارات المعظمة وسمعوا بالآذان الملصقة علـــى بـــاب الشقة وأحسوا بنفس الإحساس الثقيل يجثم على نفوسهم .. لظنوا أنهم رحلوا !

واستمر المدخل خاليا من الملصقات .. ولم يخرج أحد مـن أسرة " أمين مفتاح " .. وبدأ الجيران يظنون أنهم قد أقلعوا عـن عادتهم الغريبة ..

حتى جاء الصباح الذى غُطِّيَتْ فيه جدران المدخل والـدور الأرضى من الخارج جميعها بملصقات عُنِيَ بتخطيطها وتلوينها وعنونتها .. بل وزُيِّنَ بعضـــها برســوم وصــور توضيحيــة وخرائط ..

عن الجـــار الــذى أجــبر زوجتــه علــى بيــع كليتــها وتزوج بثمنها .. والجارة التى تذهب بعد نوم زوجها للعـــازب ذى النظارة السوداء .. والثانية التى قضت ثلاث سنوات فـــى سجن القناطر لإدانتها فى قضية سرقة مولود مـــن المستشــفى الذى تعمل فيه .. وساكن الطابق الخامس الذى تنكر لأبيه وأمــه المحتاجين وغَيَّر سكنه لكى لا يعرفا طريقه ويوجعا رأســـه .. والمختلس .. والشاذ .. والراقصة الســـابقة .. والمرتشـــى .. والمدمن و .. و .. و ..

وجرى الناس إلى شققهم ..
وأُغلِقت الأبواب ..
وسمع بكاء وصراخ ...
وخرج من يجرى إلى الشارع ..
ودخل رجال شرطة ومأذون وأمهات تبكى وآباء مهمومون وقساوسة ..

وارتاعت حياة الجميع ..

بينما كانت أسرة " أمين مفتاح " تتناول غداءهـــا وتتفـــرج على التلفاز !

يناير ٢٠٠٠

اللعنـــة

انتهى الأمر بنبذ الطفل الأسمر النحيف ذى الشعر الأجعـد الذى يميل إلى رفع صوته .. وأجلس فى آخر مقعد فى حجـرة الدراسة .. فى بداية عزلته كان زملاؤه يلتفتون إليـه مواسـين بنظراتهم .. أما الآن فقد نسوه .. وتذكروا فقـط أن يخفضـوا أصواتهم .. وصار النحيف يجلس وحيـدا يتابعـهم .. ويتـابع المعلمة التى نفته حين أغضبها !

قالت المعلمة للأطفـال أن الطفـل السـمين أيضـا بـدأ يضايقها .. عيونهم المستديرة سألتها : " كيف يضـايقك ؟ " .. قالت : " ألا تسمعون صوت أوراقه التـى تقرقـع ؟ " .. كـل الأطفال صاروا يقلبون أوراقهم بحرص شديد .. حتى الطفـل السمين .. لكن المعلمة كانت تَسُدُّ أذنيها لتحميـهما مـن حـدة صوت ورقته !

وانتهى الأمر بنذ الطفل السمين فى آخر حجرة الدراسة..

لما جاءت الطفلة ذات الجدائـل السـوداء للفصـل لأول مرة .. انشرح صدر زملائها .. عيناها الباسـمتان وعدتـاهم بأفانين اللعب ! أخرجت من حقيبتها نوى البلح وحبات الـدوم .. شكلت بها أشكالاً جميلة .. وجوهاً .. وعيوناً .. تَحلَّقَ الجميـع يتصايحون ..

ـ حبة الدوم لأعلى قليلا ..
ـ لا لا .. هى مضبوطة هكذا ..
ـ اجعلى نوى البلح نقوشا على ثوبها ..
ـ بل اجعليه قرطا لحبة الدوم ..

كثرت حبات الدوم .. ونوى البلح والمشمش والزيتــون .. ولما تراصت حبات الدوم ذات يوم مكونة جســـماً مكتــنزاً .. صاح الأطفال ضاحكين ..
ـ هو الولد السمين !
ـ نعم هو السمين بعينه ..
ـ كنا قد نسيناه !
رفعت ذات الجدائل عينيها عن تكوينها التشكيلى ..
ـ من هو الولد السمين ؟
ـ هو الولد الذى تقرقع أوراقه فتصم أذنى المعلمة
ـ هناك .. فى آخر الحجرة
نظرت ذات الجدائل إلى حيث أشاروا فلم ترَ إلا ســديماً .. مظلما .. فاستكملت لعبها ..

حقائب الأطفال مليئة بالحصى وحبـــات الثمـــار الجافــة والنوى .. وقلب ذات الجدائل ملئ بالمشاعر والرؤى
ـ هيا نُكَوِّنُ الولد السمين مرة أخرى ..
لما كونوه لم يجدوه سمينا كما كان .. قالت ذات الجدائل :
ـ هو جوعان .. منهك ..
صمت الأطفال وامتدت بعض الأنامل الصغيرة البضــة .. تلمس حبات الدوم فى إشفاق ..
المعلمة تنظر نحوهم .. وتسأل الصغيرة :
ـ أين رأيت الولد السمين ؟

فتخبرها الصغيرة بأنها تصنع تلك التكوينات مـــن وحـــى خيالها ..

انزعج الأطفال لما رأوا على وجه الولد الذى كان ســـميناً والذى كونته الصغيرة بتشكيلاتها الفنية دمعتين ..
ــ لماذا وضعتِ الدمع على خديه يا ذات الجدائل ؟
= لأنه فعلا على خديه ..
امتدت أنامل تمسح دمعه الدائم ..
ــ هو مجرد صورة ..
= ماذا تقصدين يا ذات الجدائل ؟!
ــ الصورة تماثل صاحبها ..
نظر الجميع إلى السديم المظلـــم فـــى نهايـــة الحجـــرة .. وأطرقوا ..

لما كونت ذات الجدائل بحبات التمر والزيتـــون تشـــكيلا جديدا .. صاح الصغار :
ــ هو الطفل الأسمر النحيف ..
ــ لكنه صار أكثر نحافة !
ــ هل هو نائم ؟
هزت الصغيرة رأسها نفيا .. وعضّتْ شفتها فى أســـىً ..
مدّ الصغار كفوفهم نحوه ..هو حار جداً .. محموم !
ــ ما به ؟!
صمتت ذات الجدائل وانحدرت على خدها دمعة ..

وقفت المعلمة ترنو إلى حبات التمر ونـــوى الزيتـــون .. بإشارة من أصبعها تبعتها ذات الجدائل ..
ــ أهذا أيضا من وحى خيالك ؟

– هى تكوينات أجدها فى داخلى ..
ـ أنت كاذبة !
برقت عينا ذات الجدائل .. ومسحت آ ثار دمعة كانت قد سالت من قبل .. دخلت المعلمة حجرة الدراسة تتبعها ذات الجدائل ..
ـ هى (وأشارت بازدراء نحو الطفلة) كاذبة ..
العيون الجميلة تتجه نحو ذات الجدائل .. فتلتقى النظرات .. همهمات .. وكلمة " لا " تتردد فى خفوت ..
ـ أنا لا أكره إلا الكذب ..
الألسن الصغيرة تتمتم : وتكرهين قرقعة الورق .. والصياح .. والتشكيلات الفنية ..
المعلمة تخرج من جيبها خرزات زجاجية ملونة براقة ..
ـ انظروا .. من يخاصم الكاذبين سيفوز بتلك الحبات الجميلة !
وتخشخش بحبات الزجاج ...
العيون الجميلة تتعلق بالحبات الملونة ..
ـ تلك الحبات تصنع أشكالاً رائعة ..
الطفل الذى لا ملامح له .. مدّ يده للمعلمة متمتما :
ـ أنا سأخاصم الكاذبين !
حمل حبات الزجاج وعاد فى اضطراب إلى مقعده ..

صارت ذات الجدائل تشكل وحدها تكويناتها دون أن ينظر إليها أحد .. فالأطفال الآن لا يلتفون حولها .. ويترددون قبل أن يكلموها .. وصار لدى معظمهم حبات ملونة .. لكن ملامحهم شاهت .. ثم ذابت .. ولم تعد ذات الجدائل تميزهم عن بعضهم ..

امتلأت أرضية الحجرة بتشكيل فنى للولد السمين وقد صار نحيفاً .. وبتشكيل فنى للولد الأسمر وقد سُجِّيَ على ظهره مغمضا عينيه .. وذات الجدائل إلى جوارهما على الأرض فى تشكيل ثالث .. تنحدر دموعها فى عجز ..

امتدت النظرات عن بعد .. ثم اقتربت الخطوات .. واكتملت الحلقة حول ذات الجدائل .. وسُمِعَ صوت يقول :

ــ لا .. لن تكونى معهما !

وصوت ثانٍ وثالث .. وتتابعت الأصوات .. وجاءت المعلمة .. وصاح صوت :

ــ خرزاتك باردة !

وتقافزت الخرزات الملونة على الأرض .. وعادت الملامح للوجوه .. وتشابكت الأيادى الصغيرة .. ووقفوا ينظرون للسديم المظلم فى تحفز !

أكتوبر ١٩٩٨



انسحاب

سألت الشقراء فى شقاوة :
ـ القلب أهم أم المخ ؟
دارت الكاميرا لتواجه الطبيب الذى أجاب :
ـ القلب طبعا .. أكد جالينوس ذلك منذ القدم ..

أكملتُ ارتداء ملابسى ولم أقوَ على تجهيز إفطار .. السرير " منكوش " .. " البيجامة " قطعة منها على السرير والثانية على الأرض .. الصحف ملقاة فى كل مكان .. لم أجد المشط .. عثرت على مفتاح الشقة خلف مصراع الباب .. نزلت درجات السلم فى ثقل .. تذكرت جهاز التليفزيون المفتوح .. صارعت خشونة المفاصل وصعدت ما نزلته .. فتحت باب الشقة .. الطبيب ما زال يؤكد قول جالينوس .. وأنا أضغط زر الإطفاء كان قد انتقل إلى قول الرسول : " فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله "

بعد عدة أمتار شعرت بإرهاق .. توقفت لالتقاط الأنفاس .. قسَدَتْ " المضغة " .. استوقفت سيارة أجرة .. البنك

مزدحم .. هكذا دائما فى أيام صرف المعاشـــات .. صدمنـــى شـــاب بمنكبه .. التقطنى آخر قبل أن أســـقط .. انســـحبت مطأطئا وهو يعتذر .. موظف الشـــباك شـــاب هـــادئ وديـــع النظرة يحاول أن يحتمل سخافاتنا .. على الشباك المجاور لـــه سيدة جميلة تبخل على الطابور الواقف أمامها بنظرة من عينيها وتفيض على الأوراق التى بين يديها بالنظرات .. سألت نفسى : " الشـــباب أهم أم الشـــيوخ ؟ " ســـندنى الشـــاب ذو المنكـــب القوى قبل أن أســـقط ثانيـــة .. أجلسنى على مقعـــد برتقـــالى فاقـــع .. أمر لى بكوب شـــاى .. اعتذرت عن قبوله

ــ فســـدت المضغة يا بنى

جلس إلى جوارى لافـــا ذراعه حول كتفى ..

ــ كوب ماء يكفى يا ولدى .. لا تقلق

أوصلنى إلى الســـيارة الأجرة .. أوصى الســـائق الشـــاب بى ..

ــ إصعد معه حتى باب الشـــقة

أنزلنى السائق قبل البيت بعـــدة أمتـــار لكـــى لا يضطـــر للدوران من آخر الشارع .. تمكنت مـــن الوصـــول للشـــقة بســـلام .. ببدلتى تمددت على الفراش .. بحثت عـــن طـــرف اللحـــاف فلم أجده .. جذبته فوقى مبروما .. رحمة الله عليها .. كانت تخلع عنى ملابسى وتفرد فوقى الغطاء .. فى جنازتـــها ســـقطت للمرة الأولى .. تسربت الساعات وأنـــا ملقـــى فـــى فراشى .. النهار بدأ ســـاعات احتضاره .. ثقيلـــة ســـاعات الاحتضار وطويلة .. خيم الظلام .. اســـتطاع الليل أن يفـــرد لحافه على الدنيا بإحكام .. قلت ضوضاء الشـــارع .. الدخول فى النهاية ليس جميلا .. ســـألت نفسى : " النهـــار أهـــم أم الليـــل ؟ "

دق جرس الباب فى الصباح الوليـــد .. كيـس الخـبز والجريدة وكيس اللبن معلقـون الآن علـى مقبـض البـاب الخارجى .. إذا نهضت من فراشي سأدخلهم .. ماذا سـيحدث لهم وهم معلقون هناك ؟ تذكرت أننى لم آكل شـيئا بـالأمس .. علب الدواء ذكرتنى بالطعام .. رحمة الله عليها .. الطعام مـن يديها كان هنيئا .. اهترأت بدلتى التى نمـت بـها .. فتحـت الباب .. القطط بقروا كيس اللبـن فانسـكب علـى الخـبز والجريدة .. غمسـت البقسماط فى الشاى بدون لبن .. فتحـت علبة الدواء .. فارغة هى ..

ــ يا سعدون

صعد البواب محييا ..

ــ علبة الدواء فارغة ياسعدون ..

هبط السـلم قابضا علـى الجنيـهات العشـرين التـى سـيضع منها أكثر من ثلاثة جنيهات فى جيبه .. علبة الـدواء الجديدة زاهية متماسكة .. العلبة القديمـة باهتـة متآكلـة .. اشـترتها زوجتى قبل وفاتهـا المفاجئة بيوم .. ربما ما تـزال تحمل بعضا من عبيرها .. مثل كل مـرة وضعـت شـرائط الحبوب الجديدة فى العلبة القديمة .. لكن إلى متى تتحمل العلبـة القديمة الاسـتعمال والفتح والقفـل ؟ سالت نفسى : " الجديـد أهم أم القديم ؟ "

على صوت عبد الوهاب .. أخذت أتحرك فى الشـقة .. ألملم الصحف المبعثرة وأجمع الملابس المسـتعملة .. انتظـم شـكل البيت .. أدرت قرص التليفون .. لما جـاءنى صـوت زوجته تذكرت أن " حسـين " صديقى مات فى العام الماضى.. بدأت أبحث فى دفتر التليفون .. حسين مات .. نظمى مـات ..

شـــاكر ؟ نعم شـــاكر .. على الطرف الآخر جاءنى الصـــوت متهدجاً :

— أبى فى الرعايـــة المركزة منذ أربعـــة أيـــام ..

ثقلت الســـماعة فى يدى .. شاكر يصغرنـــى بعـــامين .. موفور الصحة .. وخزّ فى المضغة ..

قابلت ولده ..

— البقاء لله يا ولدى ..

المشـــيعون كثيرون .. جميعـــهم زمـ... أولاد شـــاكر وأصدقاؤهم .. لا أحد من زملائى أنا وشـــاكر .. وخـــزّ فـــى المضغة .. كان شـــاكر مرحا .. يتـــهادى إلـــىَّ صوتـــه مـــن الماضى ..

— خذ من عيالى واحدا لتعرف أن الله مَـــنَّ عليـــك بعـــدم الإنجاب !

الأولاد ومعارفهم يثلجون صدر شـــاكر الميـــت .. أنـــا أعرف هـــذا .. كان يحب أن يُحتفى به .. أنـــا الوحيـــد فـــى الجنازة الذى جاء لشاكر .. الكل جـــاء لأولاده .. ســـألت نفسى : " الحى أهم أم الميت ؟ "

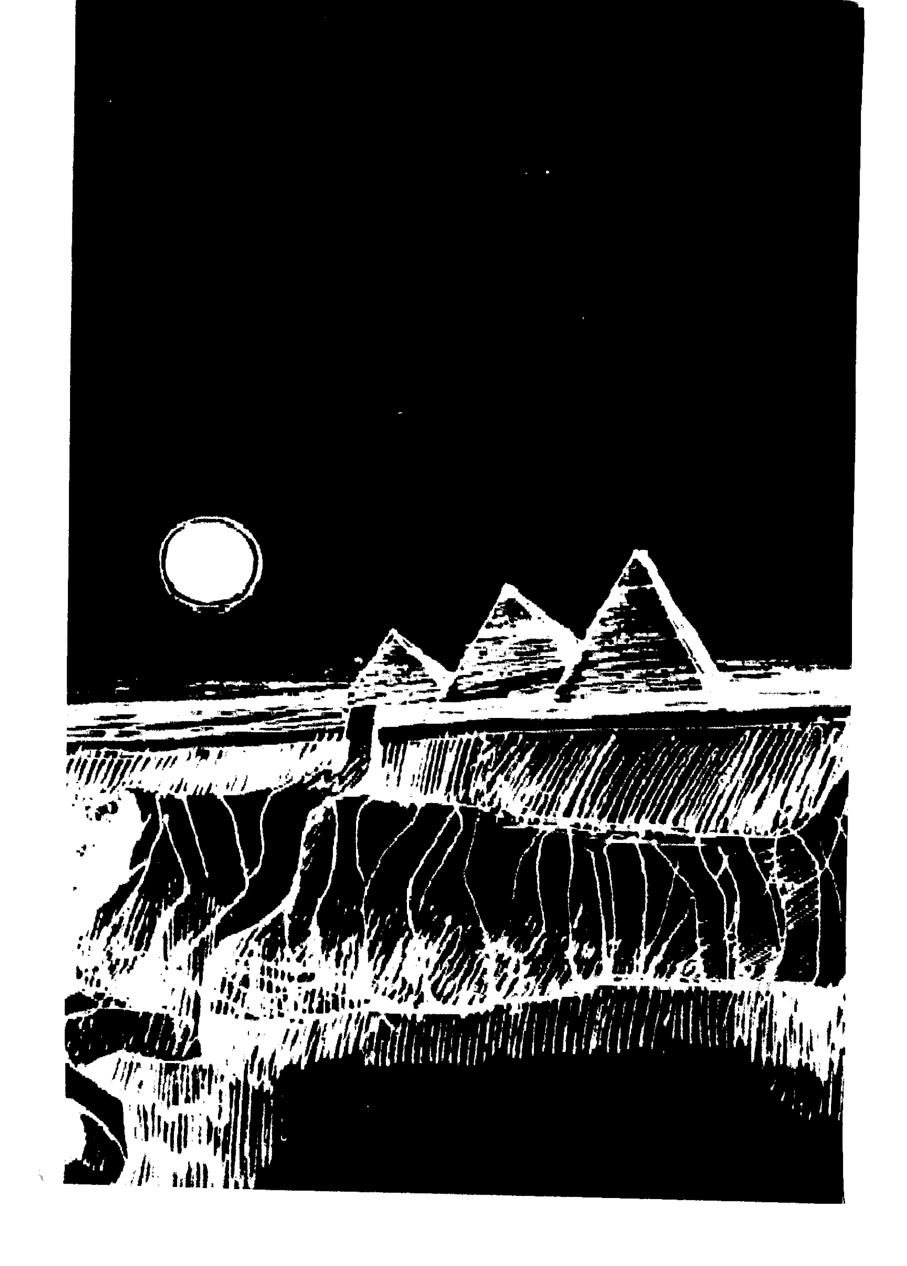
تمددت فـــى فراشـــى .. التليفزيـــون يســـكب صـــورا وأخبارا .. تناولت قرصا آخر جديدا من العلبة القديمة .. هـــل ســـمعت نقراً على الباب ؟ فتحت الباب .. لفحتنى برودة ليـــل الشتاء .. عدت لأتابع التليفزيون .. مكوك الفضـــاء الأمريكـــى يرســـل صورا من المريخ .. العلماء يؤكدون أن الحياة علـــى المريـــخ كانت موجودة يوماً ما .. هناك مجرى نهر جـــاف .. نهر عريض .. له فروع .. و وادٍ عظيم .. ووجود الماء يعنـــى وجود الحيـــاة .. قال العلماء أن هذه قاعدة لااســـتثناء منها ..

لكن النهر الآن جـــاف .. لاميـــاه فيـــه ..
مجرد أخدود عميق محفور فى الصخور ..
و الظلام البـــارد يملأ مجراه ..

وضعتُ اللحاف المتكـــور على جســــــدى .. وأغمضـــتُ عينىَّ فى استســـــلام .

فبراير ١٩٩٨





طرطور على رأس الملك

أبلغهم الملك العظيم باعتزامه الرحيل
صدر صوته مخنوقا مكتوما .. قال أنه لم يعد يطيق البقـــاء .. نكأ حديثه الجراح .. ما يحدث صار فوق الاحتمـــال .. ولكـــن كيف الرحيل وقد سُلِبَتْ الأجساد القدرة علـــى الحركـــة .. وإن كانت قد احتفظت بالقدرة على البقاء ؟
وطال البقاء ..
ولم يأتِ بعث يرد الأرواح إلى الأجساد ..
وظلت الأرواح حبيسة جوار أجسادها المحنطة ..
ما فائدة النبوغ فى الكيمياء والتحنيط بدون بعث ؟

= أتنكرون على أنفسكم نبوغها وإيمانها ؟! هل قهركم سوء الحال إلى هذه الدرجة ؟
ـ أنت لا تدرك مدى القهر الذى نعانيه ..
= كيف لا أدرك وأنا أوّلكم رحيلا ؟
ـ الرحيل نعمة لا نملكها يا صاحب الهرم .. فموميـاواتنـــا تحت أيديهم .. وأرواحنا لا تبرح المكان الذى فيه أجسادها ..

" منذ مئات السنين حزن الملك العظيم وتألمت روحه لمـــا تسلل اللصوص إلى هرمه

في ظلام المكان الرهيب تحركوا ..
وقع خطواتهم يفزعهم ..
مدوا الأيدى نحو الجسم الملفوف ..
أخرجوه من تابوته الجرانيتى ..
هبطوا به الدرج المائل ..
ربطوه بالحبال ..
دلوه من الفتحة العالية التى بقروا بها الجدار ..
تلقف الباقون الجسم الملفوف ..
وضعوه فى نعش خشبى حقير ..
فى ظلام الليل حملوه ..الروح تتبعهم أينما ذهبوا ..
تحلق فوق القارب الذى استقر فيه التابوت ..
تدخل البيت المهدم معه ..
مزقوا لفائف الكتان ..
نزعوا القلائد والأســاور والأحزمــة وأغطيــة الأصــابع الذهبية ..
فزعهم جعلهم يمزقون الجسد ليسارعوا بنزع كنوزه ..
ألقوه فى حفرة عميقة ..
ألقوا فوقه لفائفه الكتانية ..
ردموا عليه ..

الجسد يتآكل .. يتضاءل ..
الروح تحوم .. وتحوم ..
الجسد تلاشى .. تلاشى ..
الروح تبحث عنه .. ولاتجده ..
تنطلق فى الكون حزينة هائمة .. "

ــ نحن يا صاحب الهرم مربوطون إلى أجسادنا ..

انتبه صاحب الهرم من ذكرياته ..
= صدقوني تلك الأجساد لاشئ !
همهمت الأرواح .. نعم هي لاشئ .. الملك العظيم صـــار قادرا على الترحال بعد أن تلاشت مومياؤه .. صـــار يرحــل ويعود .. يغيب أحيانا ويسرع أحيانـــا لكنـــه يعـــود .. يتنسـم عبيرالوطن على شاطىء النيل المقدس .. يملأ روحـــه بعبــق الماضى الجليل .. يرتاد أهرامنا ومعابدنا ومقابرنـــا فتتعــذب روحه وتنطلق في جنبات الكون تلتمس العزاء ! يقذفها التجـوال ثانية إلى الأرض الطيبة التى أنبتت أول عود زرعه إنســـان .. فإذا هى تحتضر .. تنسحب منها الحياة شـــيئا فشـــيئا .. يقــل خصبها ويزداد خطرها وتعصف بمن عليـــها .. تتمـــرد علـــى دورها التاريخى قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة .. تندهـــش روح صاحب الهرم .. تقارن بين طيبة الأرض فى الزمـــن الفـــائت وقسوتها في الزمن الحالى .. تســـألها عـــن الســـبب .. تثـــور الأرض التى قررت الانتحار .. وتعلن أنها ملت العطاء لمـــن لا يصون العطاء !

ــ سنفتقدك يا عظيم
= ارحلوا معى
ــ لن نستطيع ما دامت أجسادنا هنا ..
= بل تستطيعون .. فقط حاولوا .. سأتمنى أن تحاولوا ..
ــ ونحن سنتمنى مثلك .. ومن غاب عنا سيتمنى أيضا ..

" نعم .. نعم .. الغائبون .. المرتحلون .. اللاهثون خلــف مومياواتهم .. نحن الملوك العظام .. تُحْمَلُ أجسادنا وأشـــياؤنا للناس ليتفرجوا ! نحن الذين انحنت الدنيا أمامنا .. يحملوننـــا كما يحمل السحرة الأفاعى والقرود ليتفرج الناس ! "

ـ كيف يرضى الأحفاد ؟
= هم يعدون للاحتفال بك !

" نعم سيضعون فوق هرمى طرطوراً ! نعم .. طرطـــورا ! قالوا ان قمته كانت مغطاة بالذهب .. و هى لم تكـــن كذلــك .. حقا نحن غطينا الكثير من أشيائنا بالذهب .. ليضـــوى شـــعاع الشمس عليها .. لتلمع تحت ضوء القمر .. لتخشع لها القلوب وتنبهر بها العقول .. فتنحنـــى الدنيـــا أمامنـــا .. ويتضـــاءل الأعداء حقارة ! نعم .. لكننا لم نفكر فى أن نصنع من الذهـــب طراطيرا ! "

= هرمى ليس فى حاجة إلى طرطورهم ليصيرعظيما ..
ـ " طرطور ! ما " الطرطور " ؟
= هو غطاء للرأس قمتـــه مدببـــة .. يلبســـه المـــهرجون والأراجوزات !
ـ وما " الأراجوزات " ؟
= لا تشغلوا بالكم .. هى أشياء حقيرة مبتذلة !
ـ أنت موضع اهتمام الأحفاد على كل حال ..
= اهتمام خال من التوقير

" فات زمن التوقير .. أحجار هرمى منقوش عليها قلـــوب وأسهم وأسماء وتواريخ .. وفى داخله تلقـــى النكـــات وتقـــام طقوس الهوس .. الرطوبة تأكل جدرانـــه ولا يرحمونـــه مـــن أنفاس الفضوليين .. "

ـــ هرمك على الأقل ثابت فى مكانه .. لا يُطاف به شرقا وغربا .. ولا أحد يستطيع تقليده !
ـــ ما زالوا يتزاحمون لمشاهدة المومياء المزيفة التى يدعون أنها لحفيدك العظيم !

" فى الزمن الذى تباع فيه الأجساد .. فى مدينة الثلج .. فى القاعة الفسيحة .. فى صندوق زجاجىَ .. رقدت مومياء حفيدى العظيم .. الروح تحلق فى كل مكان بالقاعة .. الروح قلقة من شئ مبهم مجهول .. الأحياء يرنون بإعجاب للمومياء .. الزوار ينقطعون .. تغلق الأبواب .. توقف أجهزة الإنذار .. يفتح باب جانبى فى حذر .. يدخلون بتلصص .. يفتحون الصندوق الزجاجى .. يرفعون مومياء حفيدى .. يضعون مكانها جثة أخرى لا تحمل عطر الزمن .. جثة حقيرة محنطة كأسوأ ما يكون التحنيط ! يحملون مومياء الحفيد العظيم .. يخرجون بها فى حذر .. تحلق الروح فوق مومياتها .. ويظل الفضوليون يرمقون بإعجاب الجثة المزيفة ! "

= لا تغضب يا عظيم .. هى راقدة فى مكان ما تتمتع بالسكينة .. وتنتظر الفرصة التى سيخرجونها فيها للنور !
ـــ منذ متى وأنتم تتصفون بهذا الخنوع ؟
= الرقدة هى الرقدة أيها الملك ..

" نباع فى المزادات ونشترى كالكباش .. تنبش قبورنا .. تسكن مومياواتنا الخالدة الصناديق الزجاجية المضاءة ليتفرج الناس .. يطاف بنا العالم استجداء

للقروش .. نترك لزلزلة الأرض ولفح النـــار .. وتعـد لنـا الطراطير .. وتصبح معابدنا ومقابرنا مسارح ومراقـــص .. لا .. الرقدة لم تعد هى نفس الرقدة .. ولسنا مجبرين علــى اجترار الذل للأبد .. نستطيع أن نحلق فى آفاق الكون بعيــدا عن تلك البقاع التى تعذب أرواحنا .. ولينتفعوا بما تركنـــاه لهم بالطريقة التى تناسبهم .. "

- هو الوطن !
ـ ولذلك لابد من الرحيل !

- انتظرنا يا صاحب الهرم
صاحت الأرواح الخالدة فى يأس حين أحســت بانســحاب الملك العظيم .. انطلق خلفه بعـــض منـــها وبقـــى الآخـــرون يستعدون للرحيل ..

أبريل ١٩٩٩







مُطارَد

لسعته خبطات الغصن الأخضر المنزوع حديثا من الشجرة الصغيرة الواقفة الآن بدون رأس .. فتَسَمَّرَ الفتى فى مكانـــه .. سال لعابه على جلبابه الحائل اللون .. استجاب للأمر الصـــادر له .. فحمل جواله الذى يخرج يوميا ليجمع فيه البلاستيك القديم من الشوارع .. سار فى خطو مضطـــرب غـــير متجـــانس .. محتاج هو لأمه الآن لتدعو على من ضربه .. لماذا يغضبـــون منه حين يقطع فروع الأشجار ؟ بعد بضع خطـــوات وضـــع جواله وجلس إلى جواره .. شجيرات كثيرة لها فروع خضراء مزروعة أمام البيوت .. تنتابه نفس الرغبة فى نـــزع الفـــروع الخضراء .. يتحسس فخذه الذى مازال يؤلمه من أثر الضـــرب ويقول بصوت نشاز :

ـــ شجرة ؟ شجرة لأ !

طاف بنظراته البلهاء على البيوت ثم استقرت عيناه علـــى الأشجار ثانية .. مازالت لديه الرغبة فى أن ينزع غصنا قويـــا يعلق فيه جواله ويحمله على كتفه .. تساءل بصوت باكٍ حائر :

ـــ بيضربنى ليه ؟

أمسك قطعة بلاط مكسورة ورفع ذراعه عاليا ليطوحها فى سخط .. الخوف المتوغل داخله منعه من إلقائها فأسقطها برفـق خلف ظهره ! رفع عينيه لأعلى فرآها تطل عليه من الشرفة .. طفح وجهه بالفزع .. كان يظن أنه وحده .. تعاطفت مع تشرده

وفزعه .. أوشكت أن تلقى له شـــيئا .. جنيـــها .. أو بعــض الطعام .. لكنه مدَّ يده لجواله المربوط بحبل .. وعلقـــه علـــى كتفه .. وابتعد يترنح قبل أن تطرده .. أوشـــكت أن تناديـــه .. لكنها زمت شفتيها وأرجأت عطفها وأغلقت شرفتها ..

في موقف السيارات جلس .. لأحد يعيره اهتماما .. الناس تدخل السيارات بسرعة وتخرج منها بسرعة .. وتســـير فـــي الشارع بسرعة .. وتتحدث بسرعة .. تابع باندماج مـــا يـــدور حوله .. سمع الأصوات تنادى : " المنصورة , ديرب , واحـــد المنصورة , السنبلاوين " .. ظن أول الأمـــر أنـــهم يصيحـــون فيه .. لكنه شيئا فشيئا أدرك أن أحدا لا ينتبه لوجـــوده .. بـــدأ يطمئن إلى جلسته .. ثنى ساقيه وتربع على الرصيف إلى جوار جواله .. ضحك لمـــا انزلقـــت قـــدم أحـــد الصـــاعدين إلـــى " الميكروباس " .. أشار بأصبعه الغليظ قائلا :

ــ ولَه وقع !

ثم عبس بحزم وصاح ينهره :

ــ قوم وله .. قوم سرعة !

مد يده في جيب جلبابه .. أخرج قطعة خـــبز مطويـــة .. قربها من عينيه ونظر إليها بتمعن ليتـــأكد أنـــها هـــى قطعـــة الخبز .. رفع يده بطيئة الحركة إلى فمه فقضم منها قضمة جعل يلوكها في فمه دقائق دون أن يبلعها .. نظر إلى الكلـــب الـــذى جاء إليه يهز ذيله .. عينا الكلب تتوسلان إليه.. توقـــف عـــن المضغ .. الكلب يرنو إليه في استعطاف ويئـــن .. اندهـــش .. الكلب يحبه ! يبدو أنه يبتسم له .. بادله الابتسام ! مسح الكلـــب رأسه في عضده ..

قال مشجعا :

ــ جدع كلب .. جدع !

جلس الكلب إلى جواره مصدرا نفس الأنين مرسلا نفس النظرات .. انتابه إحساس بالمسئولية .. سأله بجدية :

ـ تاكل كلب ؟

مد يده بخبزه المطوى فقضم الكلب قطعة وازدردها سريعا .. وقضم هو قطعة وابتلعها سريعا أيضا .. نسى السيارات والصاعدين والنازلين واندمج فى إطعام الكلب وانتزاع الخبز من بين فكيه لإطعام نفسه ! مدَّ الكلب بوزه ليأخذ قضمة فى غير دوره .. فسحب يده سريعا وصاح :

ـ امش

تراجع الكلب يئن فى اعتذار خافضا رأسه .. انتشى صاحب الخبز ! لقد صار سيدا .. يأمر فيطاع ! انتهى الطعام .. لعق الكلب زوايا فمه .. وظل يرقب صاحبه .. لكن شيئا ما فى نظرته تغير .. شيئا أضعف شعوره بالسيادة .. دار الكلب حوله .. كف عن الأنين .. بدأ يبتعد .. ثم انصرف !

فوجئ برجل يرقبه من خلف زجاج إحدى السيارات .. تدلى فكُّه .. ردد لنفسه العبارة التى يسمعها دائما :

ـ امش يا اهبل !

الرجل خلف زجاج السيارة مد يده داخل جيبه باحثا عن قطعة نقود .. لما وجدها كان الأهبل قد ابتعد قبل أن يطردوه .. هَمَّ بأن يناديه ولم يعرف كيف يناديه .. أرجأ عطفه .. دس قطعة النقود فى جيبه وظل يتابع الجسد المترنح وهو يبتعد ..

اكتظ الجوال بقطع البلاستيك القديم .. كان يبتسم كلما عثر على المزيد من القطع لكى يعود إلى أمه فتقول له : " جدع " ! ويتساءل مع كل قطعة يضعها فى الجوال : " جدع يا امه ؟ " .. أخرج من صدر جلبابه جوالا آخر مطويا .. فرده وبدأ يجمع

فيه قطعا أخرى .. تبعثرت القمامة التى يبحث فيها والتى كانت مجموعة فى برميل كبير .. سعيد هو بما سيعود به لأمه .. بعد أن بدأ الجوال الثانى يمتلئ .. أخذ يردد :

ـ أمه تروح المصنع .. أمه تجيب فلوس

أرعبه الصوت الصائح به فوقع قاعدا مكانه نـــاظرا إلـــى صاحب الصوت .. الركلات توجع جنبيه وصـــدره .. حركتـــه المهزوزة لا تسعفه بالنهوض .. لما نهض لم يَجْرِ .. بل قبـــض على جواليه وجرهما خلفه والركلات تلاحقه ..

جلس أمام بوابة أحد المنازل واضعا جواليه إلى جـواره .. رفع جلبابه متفحصا جنبه وبطنه .. كدمات زرقاء وحمراء على جسده .. الطفل العائد من المدرسة رأى الجســـد المصـــاب .. أنزل حقيبته من فوق ظهره وفتحها .. أخرج ما تبقى معه مـــن طعام ومصروف .. تلفت حوله فلم يجده ولم يبحث عنه ..

كان مختبأ خلف الناحية الأخرى من الدار وهو راض عـن نفسه لتمكنه من الهرب فى الوقت المناسب !

سار مجرجرا جواليه محنيا جسده المتألم .. ممنيـــا نفســـه بثناء أمه عليه .. ودعواتها على من أغضبه !

يونية ١٩٩٩



تحولات

سمعوه فى هدأة الليل
يفح صوته ..
يتسرب إلى خلاياهم ..
" أيها النائمون .. لم يكتمل النصاب "
تقلب النائمون فى فراشهم ..
فُتِحَتْ العيون وبحلقت ..
تمتمت ألسن تستعيذ من الشيطان ..
بحثت أرجل عن مداساتها ..
تسربوا فرادى وجماعات خارج الدور ..
كلٌّ يسأل الباقين :
ــ هل أديتم ما أنتم به مكلفون ؟
ــ ما هو الذى نحن به مكلفون ؟!

منذ أن ارتفع البناء الصارم فى وسط البلدة .. سمعوا فحيح صوته الكريه مرتين .. هذه هى المرة الثانية ..

المرة الأولى
فى هدأة الليل سمعوه ..
يفح صوته ..
يتسرب إلى خلاياهم ..

" أيها النائمون انهضوا ..
سَكَنْتُ اليوم بلدتكم ..
ولى تقربون القرابين..
فاحذروا لعنتى إن لم تتم القرابين نصابها "

لما أشرق الصباح .. كانت العيون مرهقـــة .. والوجــوه شاحبة ..

ولما بدأت الألسن تتناول سيرة الــهاتف المجــهول الــذى يسكن البناء الأسود الصـــارم .. اختلفــت الآراء .. وتُبودِلــت الاتهامات ..

ثار شجار عام ..
ارتفعت أذرع وهوت أكف ورفست أرجل ..
سالت دماء وتفتتت عظام ..
وأغلِقت الأبواب على أحقاد لم يكن لها بالأمس مكان ..
واكتمل النصاب !

# # #

أشرقت شموس واكتملت أقمار .. ولــم يُسْمَـــعْ الفحيــح المجهول ..

ظل البناء الملعون قائما فى قلب البلدة ..
وظلت الأحقاد كامنة فى السرائر ..
لكنهم كفوا عن الشجار ..
وهاهم الليلة بعد طول سكون .. يسمعونه ..
سألوا أنفسهم :

ـــ أى نصاب هذا الذى لم يتم ؟
اقتربت الخطوات خائفة من مقره المُصْمَت ..
صاح صائح :
ـــ ماذا تريد منا ؟
أطبق الصمت فى انتظار رد ..
ـــ يا ساكن البناء الأسود اخرج وحدثنا
قصرت فترة الصمت ..
ـــ مع من تتحدثون ؟ إن هى إلا جدران صمّاء !
ألجمتهم جرأة الفتى ..
ـــ صه ! لا تستفزه !
ـــ جبناء
أثارهم اتهامه ..
ـــ طائش أرعن !
ـــ تلتمسون الرحمة من الأحجار يا أغبياء ؟
الجميع اتجه نحو الناصح ..
ارتفعت أكفهم وهَوَت ..
سقط جسد وسالت دماء ..
فاكتمل النصاب !
وأشرق صباح ثقيل .. وقد ازداد ارتفاع البناء الأسود !

تغيرت مشاعر البشر .. شاهت ملامحهم .. صاروا أكثر قدرة على ملاحظة ما يكرهونه فى بعضهم البعض !

اختنق جو البلدة .. توقف هواؤها عن الحركة .. وأصبحت له رائحة تضيق بها الصدور .. حتى نَبْتات الأرض .. أخذت

أشكالا مستفزة .. ألوانها حمراء و برتقالية وصفراء .. صارت بقعا مثيرة كريهة ..

# # #

فوجئ الناس بالشاب يعلن أنه لن يتزوج مثل من سبقوه .. وحلف برحمة أبيه أن يقيم فرحا تحييه الغوازى !

ـ فرح تحييه الغوازى ؟

ـ هنا فى تلك البلدة المشئومة ؟

صاح بهم :

ـ أى شؤم يا أهل العقل ؟

فرح .. وسهر .. وطبل .. وزمر !!

يالها من فكرة !



تَحَلَّقَ الناس حول البساط الذى فُرِشَ لتتراقص فوقه الغوازى .. كل الناس جاءوا .. لم يبق بالبيوت أحد .. جلسوا بدون تحية .. كل ينظر أمامه ويحاول ألا تنحرف عيناه يمنة ولا يسرة .. دقت الطبول ورنت الصاجات .. وخطت الغازية فوق البساط تترجرج .. نهض العريس يرقص أمامها .. تجرَّأت بعض الأكف وصفقت .. التفتت رؤوس .. ابتسمت شفاه .. تمتمت ألسن : " عقبال عندكم " .. علت أصوات تهنئ

العريس .. تسربت حياة إلى قلوب أماتها حزن مشئوم .. شـقت زغرودة طويلة قلب الليل .. وغرق الناس فى فرحهم ..

سمعوه فى صخب الليل !
يفحّ صوته فى قلب قلوبهم ..
" *لم يكتمل النصاب* "

انتفضوا .. افترس الرعب القلوب .. اختطفـت الأمـهات صغارهن وطوقنهم بأذرعهن .. رقعت الغازيـة بـالصوت .. البناء الأسود بدا كعفريت يطل عليهم .. الأقدام تجـرى نحـو دورها .. جرّ الأب ابنته العروس فى يده ..

ـ طلاق ثلاثة ما أزوجها لك !
= ماذا تقول ؟
ـ ماسمعته !
= لماذا ؟
ـ لماذا ؟ كان قدمك أغبر !
= ولكنى كتبت عليها
ـ طلاق ثلاثة ما تاخذها !
= أهو لعب عيال ؟
ـ ليلتك سوداء ! لن تأخذها !
= سآخذها !
ـ لن يحدث !

تشرب رماد الأرض دماءً سالت ..
وأغلقت الأبواب على كره قد بلغ مداه ..
واكتمل نصاب الشر!

ولما أشرق الصباح كان البناء المشئوم قـــد ارتفـــع حتـــى اختفت قمته بين السحب ..

###

وياله من يوم كان .. هذا الذى دكت فيه صاعقـــة البنـــاء الأسود الصارم .. فانهار مثيرا عواصف الغبار التـــى خنقــت الكثيرين من أهل البلدة .. والتى حجبت النـــور عنـــها أيامــا وأياما .. إلى أن تحول الغبار إلى رماد أسود ناعم .. غطـــى مساحة واسعة فى قلب البلدة .. وصار أهل البلدة يحيون كـــل عام ذكرى صاحب الكرامة .. و يتبركون بهذا الرماد التماســا للشفاء والسعادة والذرية !!

فبراير ١٩٩٩





الابن

والله ياأبى لو حسبت مجموع ما أرسلته لك لبنى لك بيتا .. لكن ماذا أفعل ؟

توقيعات .. توقيعات .. شيكات .. شيكات .. أين تذهب كل هذه الأموال ؟

" على قد لحاف ابنك مد رجليك " .. هكذا يجب تعديل المثل .. فقد أطلت أقدامك يا أبى من تحت لحافك وبحلقت .. آهٍ لو تعلم كيف تأتى هذه الأموال ؟ آهٍ لو تعلم أمى ماذا أدفع فى مقابل السمن البلدى ومواسم البنات ونقوط الجارات ؟ قلق الليل .. التوهة فى بلاد الغربة .. حياتى التى أجرى بها على الطريق سائقا للسيارات ..

" ادفعوا لأمر (......) مبلغ خمسمائة دولار .. .. .. " للأطباء والعلاج .. لوجع الركب وضعف البصر .. كان الرمد يقرح أعيننا ويأكلها .. والبلهارسيا تمتص دماءنا .. والربّو يعصف بصدورنا .. ولم نعرف للأطباء طريقا ! اللحاف كان قصيرا .. ومن أين ــ يا أبى ــ كنت ستأتى بالمال ؟ والأرض حين نضربها لاتطلع بطيخا ! لكنها الآن طلعت دولارات ! فلنشبع شوقنا لعلاج أنفسنا .. ولنعش كما يعيش الناس .. ولنحترم وجودنا ! إنفاق المال متعة .. نعم متعة ! كسبه هو

المحنة ! المحنة التى عاشها أبى وعاشـــتها أمـــى ســنوات .. أجيران زراعيان .. وثمانية أبناء .. وحجرة فى دار جــدى .. وجدة عجوز ناقمة تجرع أمى كل ألوان التقريـــع والســخط .. وجد صامت محطم يخجل من تناول كسرة الخبز كلها فيعطـــى من يجاوره من أحفاده نصفها .. فكنا نتزاحم ونتدافع بالمنـــاكب لنجلس بجواره !

من السوق تعود أمى ظهرا حاملـــة الرضيـــع .. أعـــواد من الجعضيض لملمتها من حواف الحقول وباعتـــها بقـــروش معدودات .. تمسح بكفها الخشن رؤوس الصبيـــان وتحتضـــن الصبايا ! تشرق الحياة فى الدار .. نصيح ونصخـــب ونجـــرى ونطلب الطعام .. ونشكو لها جدتنا .. فتضع سبابتها أمام فمـــها لألا يغضب أبونا غير الموجود بالدار ! ينادى جـــدى علينـــا لنجلس معه ونسليه فنجرى مبتعدين عنه ! وينام جـــدى وهـــو جالس .. فنعود بحذر لأمنا .. تبتسم لنا فى عتاب لاتنطق بـــه لألا نزعل ! ويعود أبى .. يجلـــس مسـندا ظـــهره للجـــدار الطينى .. وتوضع الطبلية فنتحلق حولها .. حتى فـــى وقـــت تناول الطعام كانت أمى تقوم وتقعد .. تبلل مزيدا من الخـــبز .. تأتى بالرضيع الذى استيقظ وعلا بكاؤه .. ترد على من ينـــادى خارج الدار .. تضع البراد على وابور الجاز ليكـــون الشـــاى جاهزا بعد تناول الغداء .. حين كنا نراها جالسة بلا عمل كنـــا نجرى نحوها سائلين : " مالك ياامه ؟"

هاهو التوقيع يا أمى .. لكن اللحاف بـــدأ يقصـــر .. فـــى الصيف الماضى بخلت على نفسى بتكاليف السفر والزيـــارة .. العيال أولى بهم .. وضعتهم فى البنك وقلت الأيام تفوت بسرعة وكلها سنة .. أرسلت زوجتى تقول : " ابـــق عنـــدك مـــادمت

مرتاحا " .. ادعيت عدم موافقة مستخدمى لأتجنب سخطكم .. لكن مافى البنك يتناقص .. الأولاد يكبرون .. ويتعلمون .. أفكر أحيانا فى الكذب عليكم مرة أخرى .. عدم نزولى فى اجازة يوفر الهدايا والبعثرة يمينا وشمالا .. لكن العيال .. هل يمر عام ثالث دون أن أراهم؟ الولد الصغير أتم عامه الثانى ولم أره !

هذا الشيك سيكون فى يد أبى غدا .. أوصيت من سيحمله أن يسلمه له بمجرد وصوله .. ستسرع أمى إليه وهى تمسح كفيها فى جلبابها قبل أن تصافحه .. " إياك أن تحكى لهما عن الحادث " .. ولماذا يقلقكما ؟ تحطم فانوس السيارة وزجاج البوابة الفخم .. وخرجت أنا مثل الحصان .. ودفعت مرتب ثلاثة شهور غرامة وإصلاح .. لو كنت أنا الذى كسرت كان أوفر !

" واحرص يأبى ألا تذكر أمام أحد — حتى زوجتى — أننى أرسلت لك فلوسا .. وأكد على أمى أيضا .. وسلامى للجميع "

نعم إرفاق هذه الرسالة بالشيك أفضل .. لقد أصبحت زوجتى تثور لكل مليم أرسله لأبى .. خاصة وأننى حكيت لها عن الحادثة والغرامة لألا تغالى فى طلباتها لمجاملة أهلها !

سنوات .. تبقى بمفردها ترعى أطفالى الثلاثة .. أصبحت أبا وأما .. تدخر معظم ما أرسله لها باسم الأولاد وتنفق مرتبها البسيط عليهم .. وأنا أستكثر طلباتها .. ملعون أبو الفلوس ! تعيش مربية .. زوجة حين أعود .. راهبة حين أسافر .. ولا

أريدها أن تمتع نفسها حتى بسعادة المهدى حين يقدم هداياه إلـى أحبائه !

أهذا كل ما لدى من نقـود الآن ؟ لايـهم ! فـى داهيـة الفلوس ! سأرفق لها رسالة .. الشيك لأبـى والنقـود السـائلة لزوجتى .. أبى ينتشى بالذهاب للبنك وصرف الشيكات .. سعيد هو بالتعامل مع البنوك .. يشعر أن تعبه معنا لم يَرُحْ هدرا وأننا رفعنا رأسه .. حصلنا على الشهادات المتوسـطة وتوظفنـا .. وهأنا أرسل الأموال والعباءات والبطاطين التى تنشـرها أمـى ليراها الجيران ! بينما يجلس أبى أمام الـدار يسـمع شـرائط التسجيل .. ويأتى الجيران فيجلسون معه .. وينادونه ياحاج .. نعم .. ويشربون الشاى فى الفناجين ! ويحكى لهم عن رحلتـه العلاجية فى المدينة .. كشف الطبيب أبو خمسـين جنيـها .. والدواء أبو أربعين جنيها .. والتاكسى الذى يقله مـن مكـان لمكان بثلاثة جنيهات .. يشعر بالنشوة حين يترجم كل شئ إلـى جنيهات .. وحين يقولون له : " ربنا يبارك لك فيه " .. يـرد : " آمين ياربَّ العالمين " .. لكن أمى التى تسمعهم من داخل الدار تتمتم : " الله أكبر .. اللهم صلى على النبى " !

فتحتُ الباب حين سمعت الطرق

ــ تفضل

جلس من سيحمل الرسائل

= طبعا بعثرتَ المال كعادتك !

ابتسمت ومددت يدى بالمظروفين ..

ــ فلوسك هذه تنفق على الجـيران وسـائقى السـيارات الخصوصى ..

اتسعت ابتسامتى .. وانشرح صدرى .. حين تصورت أبى وهو يتناول المظروف من صديقى ويضعه فى جيب الصديـرى ويقول :

ــ والله يا ابنى الفلوس بالداخل أكوامٌ !

مارس ١٩٩٩



الأب

" ذلك الحائط يجب أن يطلى من جديد .. فالقادم يراه قبل أن يعبر القنطرة .. وجدارٌ متساقط الطلاء لا يصح أن يكون واجهة للدار .. لكن الشيك تأخر .. كان المفروض أن يصل قبل ذلك "

راودته تلك الأفكار قبل أن ينادى :

ــ يا حاجة

جاءت فى جلبابها الزاهى ..

ــ هذا الجدار يا حاجة يقلل قيمة الدار ..

نظرت له نظرة كان يتوقعها

ــ أيصح أن تكون دار " المحروس " هكذا ؟ يجب أن نرفع رأسه !

مصمصت شفتيها فى سخرية !

ــ ألا تحملين هم غضب ولدك لمنظر الدار حين يراها فى إجازته ؟

ابتسمت .. شجعته ابتسامتها ..

ــ سأتفق مع النقاشين ليعيدوا طلاء الدار ..

= تؤ .. تؤ .. تؤ ..

طقطقت بلسانها وهزت رأسها يمنة ويسرة ..

ــ لماذا لا ؟

= انسَ هذه الفلوس تماما ..
ــ كيف ؟
= لقد وعدت شيخ الأوقاف أن أتبرع بها كلها لشراء بسُط وثلاجة وتجديد دورة مياه المسجد ..
ــ المسجد سيجدد بنا أو بدوننا ..
= أنت لاتعرف شيئا .. لقد وعدني أن يكتب اسم المحروس ابنى على لوح رخامى فى مدخل المسجد ..
ــ ماذا سيفيده اللوح الرخامى ؟!
= هو هكذا ! الجميع سيتحدثون عن كرمه وغناه !
ــ وداره مقشرة مبقعة ؟
= ندهنها من الدفعة القادمة ..

نهضت .. طول عمرها قوية .. لاتلين .. ولا تغضب ! وما تريده تفعله دون تحدٍ أو صخب ! عاشرت حماتها فلم يسمع لها صوت رغم صوت الحماة الزاعق دوما .. يوم أن ولدت البنت أجبرتها حماتها على الجلوس أمام الفرن .. قالت لها : " لو كانت ولدا كنا أرحناك " .. نهضت من فرشتها .. حزمت وسطها بجلباب وأتمت ما طُلِب منها .. لكنها ــ وبدون أن يشعر أحد ــ أصبحت هى التى تحدد موعد الخَبْز ومقدار الدقيق رغم أن هذه القرارات كانت من صميم تخصص الحماه .. وشيئا فشيئا تحولت المسئوليات إليها ! كل إجبار وهدير وزعيق من جانب الحماه يتبعه ضياع لدور من أدوارها .. حتى لم يبق لها سوى التذمر وشتم الأحفاد .. ولم يعد هناك ما يعوق انسياب الحياة فى الدار !

" لوح رخامى فى مدخل المسجد "
تمتم الأب مجترا الفكرة ..
ــ ياحاجة
جاءت فى ثوبها الزاهى ..

ـ أترين أن اللوح الرخامى أفضل من طلاء الدار ؟
ابتسمت .. فالفكرة بدأت تروقه ..
= المهم ما تراه أنت ياحاج ..
تعديل ملحوظ فى الأسلوب .. مادام قد بدأ يميل .. فلماذا ينفذ وهو يظن أنها ليست فكرته ؟
ـ كنت أرى أن طلاء الدار أفضل ..
= إذن فليكن طلاء الدار .. وإن كان هذا سيفوت علينا فرصة تجديد المسجد .. لأنه سيتجدد بدون مشاركتنا فالكل يريد انتهاز الفرصة .. أما الدار فيمكننا فى أى وقت طلاؤها ..
ـ لكن ماذا سيكتبون على اللوح الرخامى ؟
= اسمه .. وعدنى الشيخ بذلك ..
ـ يعنى .. ..
وتردد فى حياء
= اسمه واسم أبيه طبعا !
ابتسم الرجل فظهرت بقايا أسنان متآكلة وتجعد وجهه فلمعت شعيرات ذقنه الفضية ! انسحبا للداخل .. أغلقا باب الدار .. أعد الغداء .. نفس الطعام القديم .. جبن وخبز وبراد شاى على النار يُعَدُّ ليُشرب بعد الغداء ! الجديد هو زجاجات وأقراص الدواء التى وضعت على الطبلية بجوار الطعام ..
ـ خذ قرص ما قبل الطعام يا حاج ..
الماء يبقبق فى البراد .. مسحت الأم شفتيها وحمدت الله .. ونهضت بصعوبة لتعد الشاى ..
ـ نسيتِ قرص منتصف الوجبة ياحاجة ..
= ساعة البطون تتوه العقول ..
جلسا يحتسيان الشاى ورائحة الصابون الأجنبى تفوح من أكفهما المجعدة ..
ـ نقطتُ ابنة جارتنا أمس بعشرة جنيهات حين وضعت ..

= عشرة فقط ؟ وهل هذه قيمة المحروس ابننا ؟
ــ أختها حبلى أيضا وستلد هذه الأيام ..
= تقصدين التى تزوجت فى الشتاء الماضى ؟
ــ نعم
= التى أهديتها بطقم الفناجين الصينى ؟
ــ لا .. تلك ابنة الجارة الأخرى .. لم يرزقها الله بالعيال بعد ..
= العيال زينة الدنيا .. سَيُسَرُّ ولدى كثيرا حين يرى اسمه على لوح المسجد ..
ــ ربنا يوسع رزقه على قدر إنفاقه فى الطيب .. إنه لايعز شيئا على أحد ..

طرقات على باب الدار ..
فتح الأب ..
بعد التحيات والسلامات والسؤال عن الصحة والأحوال امتدت يدٌ بشيك .. تناوله الأب وهو يقول :
ــ والله يا ابنى الفلوس بالداخل أكوام !

مايو ١٩٩٩



الغــوث

(حكاية ظريفة فى هيئة تخريفة)

ـ ١ ـ

الخلق سائرون .. كلهم خرجوا فى لحظة واحدة .. ولدتـهم عيون الماء وفوهات البراكين وفـــروع النباتـــات .. بعضـــهم أسقطته السحب وبعضهم جلبته الريح من أمكنـــة مجهولـــة .. النور شـــكّلَ أعدادا منهم والظلام نحت أعدادا أخرى .. أمـــا الصوت فقد عوى وهمس ودوَّى ونثر مخلوقاته ..

لحظة الميلاد تعقبها الدهشـــة .. لمـــا انتـــهت دهشـــة المواليد .. ولما استسلموا لعجزهم عن إيجاد إجابة لسؤال " أيـن كنا قبل الآن ؟ " تفرقـــوا .. هـــاموا فـــى هضـــاب الكوكـــب ومستنقعاته وغاباته وصحراواته وجباله .. أبناء الريح وأبنـــاء السحب .. أبناء البراكين والنباتـــات .. وأيضـــا أبنـــاء النـــور والصوت .. كل الأبناء لهم نفس الشكل .. جذع يحمل كرة بـــها ثقوب .. والجذع تحمله زوائد ..

- ٢ -

الشجرة الخضراء .. المليئة بالثمار الوردية المكتنزة بالحلاوة .. تعيش بجوارها مجموعة من الجذوع الحاملة للكرات المحمولة على زوائد .. يقطفون الثمار الوردية الحلوة بزوائدهم .. يضعونها فى أحد ثقوب الكرة التى يحملها جذعهم .. يحشون جوفهم بالثمار دائما والشجرة لا تكف عن الإثمار ! يتقافزون لتطول زوائدهم الثمار العالية .. صارت قفزاتهم تضاهى الشجرة ارتفاعا ..

أما الجذوع التى تفرقت فى الصحراوات .. فقد طالت ورفعت وقصرت زوائدها حتى تلاشت .. صارت تختفى بين الرمال وفى الشقوق تبحث عن قطرات الماء .. وكثيرا ماكانت تقابل الجذوع التى طمرتها الرمال فى زمن العواصف فقزَّمتها وكورتها .. وجعلتها ضعيفة ضئيلة .. فكانت تفتح فاها فتمر المخلوقات القزمة إلى جوفها فى يسر ..

- ٣ -

لما هجم المخلوق الذى نبتت لزوائده مخالب على المخلوقات التى تعيش حول شجرة الثمار الوردية .. ورأوا أحد ثقوب رأسه واسعا .. مجوفا .. يخرج منه صوت مدو .. صرخوا .. قفزوا عاليا .. حملهم الهواء فطاروا ! والمخلوق ذو المخالب يتابعهم بثقبى رأسه البراقين .. ويضرب بمخالبه الهواء .. اعترض طريقه مخلوق آخر استطالت رأسه واتسعت عيناه فى براءة .. هجم عليه ذو المخالب .. فصات ذو الرأس الطويل عاليا وتناثرت قطرات حمراء ..



ـ ٤ ـ

صار ذو المخالب ـ الذى أسموه أسدا ـ ملكا .. يأمر وينهى .. وباقى المخلوقات صارت شعبا مقهورا استسلم للطاعة والخوف .. اختفت أصوات المرح الجميلة .. و حلَّ الوجوم محل البسمات .. توقفت الذيول عن الحركة .. والحناجر عن التغريد .. امتدت الأعناق فى ذل تسترضى الأسد .. وأصبحت الحياة كريهة .. لذلك اتسعت الآذان و بُسِطَتْ أصونتها وأرْهِفَتْ الأسماع .. لما تحدث المخلوق الطائر فقال :

ـ هذا الأسد لايصلح ملكا .. وأنا أعف منه نفسا وأطيب قلبا وأكثر حبا لكم ..

ذهبت تحذيرات المخلوقات الطائرة الصغيرة هباء لما حذروا من سوء نية الطائر الكبير الذى يلتهم أفراخهم ويبتلع بيضهم ويخرب أعشاشهم .. لم تهتم المخلوقات الأرضية بسلامة المخلوقات الطائرة الصغيرة و قالت :

ـ نحن لا نبيض ولا نعشش .. وليس للطائر الكبير مصلحة لدينا .. وهو لايتطلع إلى فائدة من ورائنا !

كفَّت الطيور الصغيرة عن التحذير وابتعدت عن الكائنات الأرضية .. وتجمعت فى مكان واحد .. وصنعت لنفسها أعشاشا كثيرة على شجيرات متجاورة ..

ـ ٥ ـ

تربع المخلوق الطائر الذى صار اسمه نسرا على عرشه .. وصارت باقى المخلوقات شعبا بائسا يأتيه الأذى من

السماء ومن الأرض .. وصار أعوانه من حدآن ويوم يخربون الأرض والأوكار ويلتهمون لحوم الصغار ..

قالت الرعية :

ـ ليس هناك أفضل من صاحب الرأس المستطيل ..

سعوا إليه وقالوا :

ـ نريدك ملكا . قال :

= أنا لها ! قالوا :

ـ خلصنا من النسر فنجعلك ملكا .. ونطيعك ولا نخذلك !

قال :

= أنا لها . قالوا :

ـ ذو الرأس الطويل شجاع !

اختبأوا يرقبونه وهو ينتظر النسر .. فلما حط إلى جواره صارحه ذو الرأس الطويل :

ـ جئت يا نسر لأقتلك !

تقدم النسر فى خطوات غاضبة وعيناه تقدحان شررا .. رفس ذو الوجه الطويل رفسة فزع استعدادا للفرار فإذا الشعب يخرج من مخابئه شاكرا .. ضاحكا .. مهنئا .. التفت ذو الرأس الطويل وراءه .. فإذا النسر مقتولا .. تساءل فى دهشة :

ـ من قتل النسر هكذا ؟!

ـ ٦ ـ

ذو الرأس الطويل الذى أصبح اسمه حمارا .. صار ملكا .. لم يكن يطمع فى أكثر من مساحة من العشب ليقضمها بأسنانه العريضة .. مضت الحياة ناعسة هنية .. قبل أن تظهر أفراخ النسر و ولدان الأسد ! نهق الحمار لما رآهم .. فقد تذكر جريمته لما قتل النسر وأحس بالأسى .. برز إليه شعبه لما

سمعوا نهيقه .. فرأوا أفراخ النسر تحلق .. و ولـــدان الأســد رابضة ترقبهم عن بعد .. قالــوا : مولانــا الملــك يحذرنـــا بنهيقــه من الأعداء .. ســــألوه :

ــ بماذا تنصحنا يا صاحب الجلالة ؟

= أنصحكم بماذا ؟ عيشوا كما تعيشون ولننتظر ما ســوف يفعلون !

ــ ألا نستعد لمقاومتهم ؟

= كونوا حكماء ! هل آذوكم فى شئ ؟

ــ ٧ ــ

امتلأت السماء بذوى المناقير المعقوفـــة .. وأحــاط ذوو الأنياب والمخالب بالمملكة .. حجبوا نور الشـــمس ونّســمات الهواء .. تخبطت القلوب فى الصدور فزعـــا مــن ضربــات الأجنحة الجبارة والزئير المهدد ..

ــ يا مولانا الحمار تصرف !

= هل يجب أن أتصرف ؟ حاضر ســـأتصرف .. ولكــن كيف أتصرف ؟

برز من المياه العميقة مخلوق التصقت رأسه بجذعه وصار له ذيلا مشقوقا .. نفخ الماء نافورة من أعلى رأسه .. قال :

ــ رأيت على اليابســة البعيدة مخلوقا جبارا .. ينفث النار ويسحق بأقدامه المفلطحة الكائنات .. له عشرات الأذرع التـــى تطول وتقصر وتلتف وتقتلع .. فى خطوتين اثنتين يســتطيع أن يصل إليكم فيحميكم من أعدائكم !

ازداد خبط القلوب على الضلوع لمــا ســمعوا أوصــاف المخلوق الجبار ..

سأل المخلوق الذى ينفث الماء نافورة من أعلى رأسه :

ـــ هل أسبح إليه وأناديه ليحميكم ؟

صاح الحمار :

= أسرع ياصديقنا .. أغثنا !

غطس وبين الحين والحين كانت نافورته تظـــهر أصغـــر وأصغر حتى اختفت ..

ـــ ٨ ـــ

رعدت السماء .. وثارت الأمواج .. وتشققت الأرض.. وطاشت الرياح لما صاح المخلوق الجبار ..

ـــ ها قد جئت لأنقذكم !

ارتفعت الرؤوس لأعلى .. لأعلى .. لكنها لم تستطع تبيـــن ملامح المخلوق المختبئة فى الغيوم .. خـــافت الصرخـــات أن تنطلق .. وتسمرت الأجساد لا تقدر على الفرار ..

ـــ أين ملككم ؟

فتت الصوت المـــدوى الجبـــل .. طـــيَّر النحـــلات مـــن أوكارها .. عكر مياه النهر الرائق ..

= أنا هو يا مخلوق ياجبار

مد المخلوق عنقه لأسفل .. فظهرت رأسه .. وقدحت عيناه شررا .. ثبت نظراته على الحمار .. ثم نفخ فى استهانة فلفحت رياح الصهد جانب شجيرات الغابة فجفت أوراقـــها وتكســـرت وتساقطت ..

ـــ أين أعداؤكم ؟

= فى السماء والأرض أيها المخلوق العظيم ..

ـــ حدد يا ذا الأذنين الطويلتين .. هل السحاب عدوكـــم أم العصافير ؟ وهل الشجيرات أم الأنـــهار أم رمـــال الصحـــراء أعداؤكم ؟

= النسور يا عظيم .. والأسود ..

زفر المخلوق زفرة ضيق فلفحت ريـــاح الصــهد فــروع شجيرات الغابة فجفت وتكسرت !

مد المخلوق الجبار شفتيه إلى مياه النهر .. شفطها حتـــى ظهر قاع النهر الطينى .. وبدت مخلوقات قشرية براقة تتقـافز فى وحل قاعه ..

لف ذراعه على جانب شجيرات الغابة فاقتلعها وحشا بـــها جوفه .. واستنشق فتطايرت صغار الكائنات إلى جوفه ..

تمدد فوق الأوكار والجحور فدمرها ..

نام فعلا شخيره مزلزلا الأرض ..

الأعين تختلس النظر من الجحور والأوكار فـــى هلـــع .. ينادون فى صوت هامس :

ـ يا مولانا الحمار

والحمار يقضم العشب وهو راض كل الرضا عن حســـن تصرفه !

ـ ٩ ـ

قذف المخلوق الجبار اللهب فى السماء .. فتساقطت النسور محترقة .. وتساقطت معها العصافير والنحلات والفراشات ..

صاح الحمار :

ـ ما أعظمك يا مخلوق يا جبار !

الأعين تفيض بالدمع على نحلات العسل وعصافير النغـــم وفراشات الربيع ..

نظر الحمار إلى رعيته آمرا :

ـ اشكروا المخلوق الجبار !

انحنت الرؤوس فى تسليم

نزع المخلوق ما بقى من شجيرات الغابة .. وحشـــا بـــها جوفه ومَدَّ فاه إلى السحابات المكتنزة بالأمطار فامتصها .. ونام يزلزل الأرض بشخيره ..

تسحبت الرعية إلى ملكها الحمار .. وتوسلت :

ــ أغثنا يامولانا الحمار

= أوَ أكثر من هذا غوث ؟

ــ هذا دمار يا مولانا !

= دمار ؟!

ــ خلصنا منه يا مولانا .. أوَ لم ترَ ما فعله بنهرنا وغاباتنا وإخواننا ؟ خلصنا منه وسنبحث نحن عـــن وســيلة لمواجهـــة الأسود والنسور

= أخلصكم منه ؟ ماذا تظنونني ؟! هل رأيتم لى يوما مخلبا أو نابا ؟ أم تراكم تظنون أن جوفى محشوّ باللهب الحارق ؟ أنـا يا أغبياء **حمار** !

ثقلت الرؤوس على الأجساد فتدلت .. جثـــم الــهَمُّ علـــى النفوس فهدها .. وجرَّت المخلوقـــات خيبتـــها واختبـــأت فـــى الجحور ..

ــ ١٠ ــ

امتلأ جوف المخلوق الجبار بلحـــم رعيـــة الحمـــار بعـــد أن قضى على كل أعواد الزرع حين قـــذف الأســـود باللـــهب الحارق ..

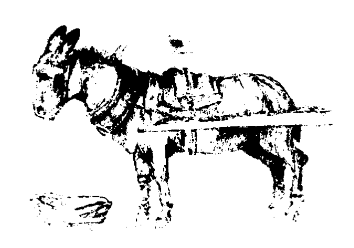
ثارت الرعية .. هجّت مـــن أوكارهـــا وانتشـــرت حـــول الحمار ..

ـ ماذا تنتظر أيها الملك الحمار ؟ أطلب منه أن يرحــل ! أولم يقض على الأعداء منذ زمن ؟ ماذا ينتظر ؟

ضحك الحمار بتذاكٍ

ـ يالكم من بلهاء .. أولم تلحظوا الأسد الذى اســتطاع أن يفر من مرمى لهب المخلوق العظيم ؟ ماذا نفعل إذا عاد إلينــا هذا الأسد مهددا ؟!

مارس ١٩٩٨



بوابات الموت

طفلنا شعره أسود .. مثل كل أطفالنا ..
عيناه سوداوان .. مثل كل أطفالنا ..
قدماه صغيرتان .. صوته مصوْصيوّ .. مثل كل الأطفال ..
طفلنا ليس ككل الأطفال ..
طفلنا جائع .. يأكله المرض ..
طفلنا الذى لايجد القوت .. غنى !
لكنه حين يحاول شراء الخبز مـــن التـــاجرة .. ترفـــض كنوزه .. تقول له :
ـ افتح لى بيديك الصغيرتين بوابات القصــــر الكبـــير .. لأعطيك ما تريد
يرتمى طفلنا فى فراشه منتظرا ..
والغاشمة تحمل فى يدها قنبلة .. لاتضعها أمــــام بوابــات القصر الكبير .. لكنها تعبس فى وجه طفلنا .. وتُلوّحُ له بها ..
العيون الكثيرة ترقب طفلنا ..
عيون زرقاء وخضراء .. أما العيون السوداء كعينيــــه .. فهى تبكيه ..

حين يموت الطفل .. قد تجف دموع العيون السوداء .. وقد تنهار بوابات القصر الكبير بفعل فاعل أو من تلقاء نفسها .. وقد يجد أطفال آخرون هنا أو هناك من يرفض عذابهم ..

لكنى سأظل أذكر أن التاجرة تلـــذذت بمـــوت طفلـــى ..
وسيزداد كرهي لثوبها المخطط بالأبيض والأحمر كل يوم !

ديسمبر ١٩٩٧





فرحة ما تمت !

زادت الطرقات عنفا .. ويبدو أنها صوحبت بركـــلات .. الأبناء فى غرف الدار الكثيرة .. كل واحد أغلق علـــى نفســه غرفة .. بدأت الأصوات تنادى من الخارج .. والحجارة تقـذف فى النوافذ .. والأبناء فى شغل عن تلبية النداءات .. تسلق واحد من الطارقين الجدار إلى نافذة يشع النور من خلف خصاصها .. لم يرد أحد على طرقاته أو نداءاته الصارخة .. الابن الكـــامن فى الحجرة بين كومة أوراق .. تعلو شفتيه ابتســامة انتصــار أحيانا حين يقرأ إحدى الوريقات .. فيفردها ويضعها بحـــرص فوق وريقات أخرى بهيجة يرصها على فخذه .. ويحـــك ذقنـــه التى لم تحلق منذ أيام .. الطرقات على النافذة لاتثير انتباهــه .. والنداءات لا تسمعها أذناه ..

هبط متسلق الجدار .. فـــتُرَ الطــرق والنـــداء .. ســرت همهمات .. لابد أن شيئا قد حدث .. عُرضت الاحتمــالات .. ربما سافروا .. أو اعتكفوا حزنا لموت أبيهم .. وربما مــاتوا ! لو سافروا لما تركوا الأنــوار مضــاءة .. هــم إذن حزانـــى أو موتى .. سرت الحماسة من جديد .. علت الأصوات مناديــة فى حدة .. لأحد يرد .. هل يسمع الموتى ؟ لابد من تصـــرف آخر .. برز المتسلق ثانية .. عرض أن يتسلق إلى سطح الـدار ثم يهبط السلم ويكسر باب إحدى الشقق .. لــم يلــق اقتراحــه

استحسانا .. ربما كانوا نائمين أو معتكفين ولا يصح أن تقتحم البيوت هكذا .. لكن من الممكن أن يصل المتسلق إلى تلك الحجرة الثانية المضاءة القريبة نافذتها من شجرة التوت العالية .. وإذا كانت الحجرة الأولى قد تُرك نورها مضاء سهوا وليس بها أحد .. فإن شاء الله يكون فى الحجرة الثانية أحد .. أعطوه مطواة دسها فى جيبه .. فى دقائق كان ممتطيا شجرة التوت العالية .. تعلق بأحد فروعها .. مد ذراعه بالمطواة نحو النافذة ليعالج مزلاجها .. خربش خشبها وفتته عند حافة المصراعين .. كُسِرَتْ مطواته .. صوت الخربشة المريب لم يثر انتباه الابنة داخل الحجرة .. ولو هدأ صخب المتجمعين بالخارج وأنصت متسلق شجرة التوت لسَمِعَ بوضوح صوت المقص : تك تك تك تك ! لكنه لن يتمكن من رؤية الابنة وهى تضع ثوبها على جسدها .. وتنظر فى المرآة إلى نفسها بعد أن قصرت ثوبها وجعلته يظهر ركبتيها البيضاوين .. ولن يرى أحدٌ ذراعيها المكتنزتين اللتين تخرجان من فتحتين كانتا تتصلان بكمين طويلين ثم انتزعا !

لما هبط المتسلق كان الحماس قد فتر .. وعُرِضَت الاحتمَالات .. واقترحت حلول .. وقال صوت :

ـ إذا كانوا لم يموتوا فهم أحياء .. وإذا كانوا أحياء فلابد أنهم يسمعون ولايريدون أن يجيبوا !

ساد صمت .. دارت أسئلة فى العقول .. لماذا وكيف وهل .. و .. ؟ والعمل ؟ أجاب نفس الصوت :

ـ نبلغهم بما جئنا لأجله من مكاننا هذا !

سرت حركة وثارت اعتراضات .. وقيل له أن مثل تلك الأخبار لا تلقى هكذا مرة واحدة .. فلابد من التمهيد .. وإلا ساءت العاقبة !

عادت النداءات التى تخلل اليأس نبرتها .. وعادت الأحجار تؤازرها بخبط النوافذ .. وانتُزِعَ فـــرع طويـــل مـــن إحـــدى الأشجار .. ربطوا فى طرفه خرقا مبللة بـــالزيت والجـــاز .. أشعلوها .. قربوها من نافذة ثالثة وأخذوا يصرخون :

ــ حريق .. حريق !

الابن بالداخل يرص الذهب على صورة فوتوغرافية لفتـــاة جميلة .. يضع العقود على عنقها والأقراط على أذنيها .. يقـــف أمام المرآة مرتديا سترة سوداء وربطة عنق فاقع لونها ويســـير ثانيا ذراعه من الكوع كأن هناك يد تتعلق به .. ويدنـــدن بنغـــم حفلات الزواج !

بُحَّ صوت الصارخين بالخارج قبـــل أن يـــنزلوا شـــعلتهم ويطفئوها .. جلسوا وقد أسقط فى أيديهم .. لابد مـــــن ابتكـــار طريقة .. ولابد لهؤلاء الأبناء أن يعرفوا بما حـــدث وبصـــورة متدرجة .. فهم مهزوزون خفيفو القلوب .. قال الشـــيخ الـــذى تضئ لحيته الفضية فى الظلام :

ــ صيحوا بأعلى صوتكم : القبر مفتوح .. الذئاب نبشـــت قبر أبيكم !

= أى ذئاب يا شيخنا ؟

ــ لاذئاب ولا غيره .. المهم أن نلفـــت نظرهـــم ونمـــهد للمسألة الأخرى !

وعلت الحناجر : قبر أبيكم مفتوح !

الأصوات تُسْمِعُ نجوم السماء .. لكن أحدا من الأبناء لـــم يسمعها .. حتى ذلك الجالس فى مكتب أبيه بالطابق الأرضى .. بالقرب من الزاعقين .. والذى كـــان مشـــغولا بنفـــخ أوداجـــه و تدوير الكرسى يمنة ويسرة والتلويح بكف يـــزدان خنصـــره بخاتم ضخم .. وإدارة حوار وهمـــى مـــع موظفيـــن وعمـــال ومستأجرين !

لا .. مؤكد ماتوا .. اجتاح القلق الجمع .. وعبارات الشفقة رددتها الألسن .. وبدأت خبطات بفئوس وقضبان حديدية علـــى البوابة لتكسرها .. وجئ بأقرب حـــداد ليعـــالج فتـــح الأقفـــال الضخمة .. واكتظت الطرقات أمام البيت بالناس .. وتبودلـــت عبارات الحزن على الأبناء الطيبين الذين ماتوا حزنا علـــى أب طاغية !

وفُتِحَ الباب الحديدى فاندفعت الجموع تتزاحم .. وارتطمت الأعضاد بأبواب الشقق تفسخها .. وفسخت أبواب الغـــرف .. ودُهِلَ الطالب والمطلوب ! ثم علت تكبيرات .. وطار الخبر إلى من لم يجد فرصة للدخول الى البيت .. والأبناء يرتعشـــون .. تصطك أسنانهم .. و تشرد نظراتهم ..

جمعوهم أمام الشيخ ذى اللحية المضيئة .. الابن القـــابض على وريقاته والابنة ذات الساقين البيضـــاوين والعريـــس فـــى سترته ورباط عنقه الفاقع .. وحتى المتكبر الذى نفخ أوداجة .. وقفوا جميعا يرتعشون و ينتفضون ويتلفتون .. أجلسهم الشيخ .. هَشَّ فى وجوههم .. سألهم عن أحوالهم .. ربت علـــى ظـــهر حامل الأوراق ومسح رأس العريس المزعوم .. بحث فى رأسه عن بداية لحديثه .. نكثت السويعة الماضية وما حدث فيها كـــل غزله الذى كان قد أعده .. تململ الحاضرون كعادة كـــل مـــن يحمل أنباء غير متوقعة ويريد أن يرى وقعها علـــى النـــاس .. تعجل واحد فألقى العبارة التى كان الشيخ قد أشار بها : " فُتِـــحَ قبر أبيكم ! " .. شخصت نحوه ثمانية عيون فزعـــة .. نـــهره الشيخ بنظرة صارمة .. جلس العَجُولُ خَجِلا .. تجرأ صـــوت مفزوع :

ـــ هل أكلت الذئاب جثة أبى ؟

صمت الشيخ الذى تعلقت به الأنظار قبل أن يجيب :

= يا ابنتى أبوك بخير ..
تجرأ صوت مفزوع ثانٍ :
ـــ هل يتأذى الميت بنهش الذئاب ؟
صمت الشيخ مدة أطول قبل أن يجيب :
= لا يا بنى .. الحى هو الذى يتأذى
جاء الصوت الثالث :
ـــ والحمد لله فأبونا مات !
طالت فترة الصمت أكثر ، وجاء صـــوت الشـــيخ عميقـــا رهيبا :
= دُفِنَ أبوكم حيا ! ونحمد الله الذى مكننا من .. .. ..

جرى الأبناء الأربعة .. تركوه يكمل حديثـــه لغـــيرهم .. عادوا إلى ما كانوا فيه .. لكن بالعكس .. فالأوراق تُجْمَعُ كلـــها فى خزينة الأب .. والأثواب تُخاط بها الأجزاء المقصوصـــة .. والذهب يُرْفَعُ من فوق صورة الفتاة الجميلة وتُدَسُّ السترة فـــى الدولاب .. والمكتب يغلق وينتزع الخاتم الضخم من الخنصر .. ليعود كل شئ كما كان .. انتظارا لعودة الأب !

ديسمبر ١٩٩٩



أبوها راض وأنا راض

شعر القاضي تهدل حتى وصل للأرض .. عيناه حمـواوان مَتعبتان .. وجهه ينطق بالإعيـاء .. ضمـر جسـده وتدلـت ملابسـه .. معـذور القـاضي .. فمنـذ زمـن ــ لفظـة (طويل) قصيرة على وصفه ــ وهو جالس هكذا .. ولايجـد الفرصة لترك مقعده !

المرأة الملطخة بالألوان أمامه تدعى أن الرجل " الغلبـان " ــ الواقف أمامه أيضا ــ هاجمها .. وخدش حياءها .. و .. !

ــ والله العظيم ما قربت منها !

الصوت المتبجح المعتاد على الانطلاق يلعلع :

= أو أتحرش بك ؟ أتبلى عليك ؟ إصح لكلامـك يـا ... (لفظة بذيئة جدا)

القاضي يدق بمطرقته .. ويتنحنح !

الصوت الناعم المعتاد على التعهر :

= آسفة .. أعصابي منهارة لما فعله معي !

العينان الفاجرتان تسبلان جفنيهما في دلال ماكر ..

ــ ما رأيك فيما تقوله الشاكية من أنك هـاجمت منزلـها و .. .. وباقي ما جاء في شكواها ؟

= لم يحدث .. أنا لم أرها من قبـل .. ولا أعـرف لـها منزلا !

ـ هناك شهود على ما حدث
= شهود ؟
استدار الغلبان فى ذهول نحوها
= أأنا الذى هـاجمتك ؟ انـت مخطئـة .. واالله العظيـم ماحصل .. تأكدى االله يسترك ولا تضيعينى !
ـ أتأكد ؟ وهل أتوه عنك ؟ ثم انها ليست المرة الأولى !
وجهت نظراتها النافذة للقاضى :
ـ لقد تحرش بى قبل ذلك فى البنك .. وطلب منـى .. .. ياللحرج .. ماذا أقول ؟ و هددنى بتعطيل مصالحى إن لم ألـب مطالبه .. واشتكيته لمدير البنك ..
= ناد على مدير البنك

جرى إلى صدر القاعة رجل قصير لطيف الوجه باسمه
ـ نعم حدث .. لكننا سوينا الأمر بصورة وديـة حرصـا على مستقبله المهنى والعائلى !
عينا المتهم تتسعان وفمه ينفتح فى بلاهة !
= سائقى أيضا رآه وهو يقتحم مسكنى ولما طرق البـاب لتخليصى منه فر المجرم من النافذة ..
وقف السائق يؤرجح نصفه الأعلـى ويـهز ركبتـه فـى صفاقة .. ويحكى ..
ـ يا نهار اسود ..
تمتم المتهم
قبل أن ينطق القاضى اقتحمت القاعة طفلـة تجـر كلبـا ضخما من ذيله .. والكلب يعوى متألما .. وعينا الطفلة تقدحان شررا .. وقفت فى تحد ترمق القاضى .. ابتسم لـها فأشـاحت بوجهها وأشارت للكلب ..
ـ هذا الحيوان يخدعنى !

تأمل القــاضى الكلــبَ فــإذا هــو خــاضع .. ذليــل .. مرعوب .. يصوصو فى استعطاف ..

= مالى يا بنيتى والحيوانات ؟

ـــ ماذا تقول ؟ أولست القاضى ؟ أولست المســئول عــن معاقبة المخادعين ؟

= نعم يابنيتى لكنه كلب !

ـــ المهم أن تحقق العدالة وترد لى حقى الذى يضيعه هــذا المخلوق .. أليس هذا دورك ؟

= نعم .. لكن .. ..

ـــ حسنا .. هذا ـــ وأشارت للكلب بغِلٍ ـــ لا يؤدى عمله !

= وما هو المطلوب منه ؟

ـــ أن يكون كلبا !

= هو كلب فعلا

ـــ بل ينتحل شخصية كلب .. بينما هو فى الواقع إنسان !

= هو كلب .. هذا شئ لايحتاج إلى نقاش ..

ـــ إذن أخبرنى لماذا لايتصرف ككلب ؟ إنه يسمح بدخــول الغرباء .. ولا يأكل العظم .. ولا يبصبص بذيله حين يرانــى .. ولا يميز الروائح عن بعد .. ويصادق القطط .. وفوق كل هــذا هو لا ينبح إطلاقا ..

= ربما هو مختلف .. غريب الأطوار ..

مدت الطفلة عنقها نحو أذن القاضى .. وأخفت فمها بكفــها آخذة سمت الخطورة وهمست :

ـــ إنه الشحاذ ! أجرى عملية تجميل وجعــل نفســه كلبــا ليسكن فى بيت الكلب ويأكل طعامه !

ارتد القاضى بجذعه للوراء مدهوشا ..

= جراحة تجميل ليصبح كلبا ؟

ـــ نعم .. ليسكن ويأكل ..

هتف القاضى :

= أين المساعدون ؟

رد صوت من خارج القاعة :

ــ نعم

= أقبلوا فورا

جاء صاحب الصوت متبرما

ــ نعم

= أين زملاؤك ؟

ــ ملوا ! سئموا ! خرجوا يبحثون عن عمل آخر !

= عمل آخر ؟ وما له عملكم ؟

ــ ممل .. نجلس هكذا عن يمينك وعن يسارك دون داع .. شئ مميت !

= إنه عملكم ..

ــ ومللناه .. ماذا فى هذا ؟

= ما الذى مللتموه فى عملكم ؟

ــ الجمود .. ثم أين هو العمل الذى نعمله ؟ ألا ترى هؤلاء الشاكين .. إنهم واقفون أمامك منذ دهور .. ولا أحد منهم قد حللت مشكلته !

= تتمردون على ؟

ــ نريد أن نعيش .. نتحرك .. نفكر .. إلى متى تريد أن تحبسنا إلى جوارك ؟

= لكن من سيساعدنى ؟

ــ نحن لسنا ناكرين للجميل .. سنرتب لك من بيننا من يساعدك إلى أن تعثر لنفسك على مساعدين جدد ..

انبرى رجل عابس الوجه أسود الجبين وقال بغلظة :

ــ نحن نساعدك ..

وتواتر خلفه رجال علـــى شـاكلته .. تطفـح وجوهـهم بالكراهية .. ترددت نظرات القاضى بينهم فى حيرة ..

هبطت سحابة صغيرة وحطت فى أرضية القاعة فلم يسـمع لها صوت .. تمدد جسمها حتى ملأ كل فراغ القاعة .. أخرست الدهشة الجميع حتى قطع صوت القاضى الصمت ..

ـ لماذا نزلت إلى هنا ؟

= ماذا أفعل وأنت لم تعد تطلع لنا ؟

ـ مشاكلهم هنا لاتنتهى !

= وقد امتدت إلينا !

ـ إليكم ؟!

صوت السحابة الناعم الجميل جعل جميع من فى القاعـــة ينامون فلا يسمعون شكواها .. هدأت مشاعر القاضى .. منـــذ متى لم يقابل واحدا من تلـــك المخلوقـــات العذبـــة ؟ أغرقتـــه صراعات سكان العالم السفلى وشغلته ..

= جئت حاملة مطلبا من إخوانى وجيرانى

ـ تفضلى

= لقد ضاق علينا عالمنا .. وصارت المخلوقات الســـفلى تصنع أشياء تقذفها إلى وطننا حتى ازدحم وصـــار مزعجـــا .. خانقا .. صاخبا

تنهد القاضى مهموما وأومأ برأســـه مؤيـــدا .. فتشـــجعت السحابة وعرضت مطلبها ..

= لذلك نريدك أن تفصل بحاجز بيننا وبينهم ..

أفاق القاضى .. اهتزت رأســـه مـــن المفاجـــأة .. بينمـــا استطردت السحابة

= وليعش كل منا فى عالمه .. بحلوه ومره ..

فرك القاضى جبهته .. وقد ساءه أن يضطر إلى خـــذلان السحابة اللطيفة ..
ـ يستحيل فصل هذا العالم عن عالمكم .. إنهم يســتمدون حياتهم منكم ..
= حياتهم هى التى تعنيك فقط ؟ حتى وإن كـانت تقضـى على حياتنا ؟ أين العدل إذن ؟
اربد وجه القاضى .. ولوح للسحابة بسبابته ..
ـ أتتهميننى بالظلم ؟
استيقظ جميع من فى القاعة .. وإذا السحابة تلملم أطرافـها وتحلق ..

= هل سأظل العمر كله أنتظر حقى ؟
صاح الصوت المتعهر فى نفاذ صبر ! بينما كــان يعـبر القاعة اثنان فى ملابس ملونة مزركشة يركبان فـى أرجلـهما سيقانا خشبية طويلة جدا .. لم يلتفت إليهما أحد ..

كلمات وعبارات بلغات عدة تتلاطم وتتبارز .. أشـخاص يدخلون القاعة مشتبكون .. كـل منـهم يمسـك بـالآخرين .. يتحركون ككتلة واحـدة .. وتتصـارع ألسـنتهم المختلفـة .. يدهسون فى زحفهم العشوائى بعـض الموجوديـن بالقاعـة .. تعالت الأصوات تنبههم وتستغيث بالقاضى .. الـذى لا تثـير مطرقته أى احترام فى نفوس المتصارعين .. حتى صوته الذى هدر محذرا إياهم من غضبته لم يحرك فيهم جارحـة ! الكتلـة البشرية تندفع أماما .. ثم خلفا .. ثم يسارا .. ثم تتقـدم تتقدم .. وتكاد تخرج من القاعة فإذا بـها تندفـع ثانيـة إلـى وسطها .. تناثر المصابون تحت الأقدام الطائشـة .. والطفلـة تنتف ذيل الكلب بتشفى .. ملأ الذعر القاعة والقـاضى حـائر

لايدرى ماذا يفعل .. صار الاهتمام الأعظم هــو توقــع اتجــاه زحف الكتلة للابتعاد عن طريقها .. ارتطمت الكتلـــة مرتيــن بمنصة القاضى الذى جلس واضعا رأسه بين كفيه ! والصـــراخ يملأ المكان حوله .. رفع القاضى رأسه ونظر بعينين كليلتين .. أشار للموجودين بيده وناداهم إليه .. التفت نحوه كل منهم بعيـن واحدة بينما الأخرى تتابع اندفاعات الكتلة الطائشة .. أشـــاحوا بأيديهم نحو القاضى حين كرر نداءاته .. أداروا له ظهورهم .. دقات المطرقة لم تعد تسمع بعد أن امتلأت القاعـــة بالتعليقـــات العالية .. بطريقة غامضة وغير مفهومة ظهر مؤيدون لوجـــود الكتلة المتصارعة .. واحتدم الحوار بينهم وبين الرافضيـــن .. وزاد على أصوات الحناجر أصوات اللطمات والرفسات ..

هبطت السحابة ثانية .. كست منصة القـــاضى برذاذهـــا اللطيف .. لم يلحظ أحد نزولها .. غبار الصراع أعمـــى كـــل الأعين ..

ولما طارت السحابة ثانية .. لم يكن القاضى جالسا علـــى منصته !

أغسطس ١٩٩٩







قلوب مغشوشة

خرج الولد حمادة بنفس الملابس التى يرتديها كل يـــوم .. والتى نسى هو نفسه ماذا كان لونها .. والتى ترفـــض أمــه أن تغسلها وتقول له :

ــ إيش تعمل الماشطة فى الوش العكر ؟

حمادة يريد لملابسه أن تكون أقل بشـــاعة .. و البنطلـــون الذى أعطته له السيدة التى تسكن فى الدور السابع .. دفنته أمــه فى قعر الدولاب وقالت له :

ــ إبعد عنه بزيتك وشحمك !

تذكر حمادة البنطلون وهو ذاهب إلى الورشـــة .. وقــال لنفسه :

" ربما تحفظه أمى للعيد "

وطمأن نفسه بأن جسد أحد من إخوته لن يتلاءم معـــه .. " على طويل جدا .. ومصطفى سمين .. إذن هو لى ! "

أزاح حمادة باب الورشـــة لأعلى .. وتريث برهـــة ينظـــو إليها .. وجـــهه لايحمـــل تعبـــيرا .. أو ربمـــا يحمـــل كـــل التعبيرات ! مفاتيح الصواميل معلقة على الحائط ومرتبة حسـب مقاساتها .. المنضدة عليها مفكات ولقم وعلـــب وكراكيـــب .. توجه حمادة إلى حيث صنبـــور الميـــاه وحـــوض الاســـتحمام

وخرطوم الهواء الطويل .. أزاح المطرقة والعتلة الحديد بقدمه .. في تكاسل ركب خرطوم مياه في الصنبور ثم فتح الصنبور وجعل يرش المياه بدون اهتمام .. ثم بدأ يزيح المياه بمساحة متآكلة إلى خارج الورشة فتكونت بركة صغيرة سوداء أسفل الرصيف ..

قبع حمادة على حجر بجوار الباب .. بعد أن لم القلوب القديمة لإطارات السيارات ورصها في ركن .. وجلس ينتظر الأسطى الذى جاء صاخبا هائجا بدون سبب واضح .. وأرسل حمادة إلى شريكه الميكانيكي الذى يشغل جزءا من الورشة :

ــ قل له نقفلها أحسن !

حمادة طبعا لم يقل له هذا لكنه عاد مشتوما وبداخله شعور الشماتة المعتاد الذى ينتابه كلما تشاحن الآخرون !

الصبيان يجرون هنا وهناك .. يناولون ويعملون بأيديهم ويفكون ويركبون .. والأسطى وشريكه يدخنان الشيشة ويديران العمل بلسانيهما الطويلين ..

فإذا جاءت سيارة طويلة عريضة مرفوعة المؤخرة .. نهض الأسطى .. لكن بمجرد أن تترك إطارها للتصليح وتذهب ينادى أى " حيوان " من صبيانه ليتولى المهمة ..

اعتاد حمادة أن يستبدل قلب الإطار التالف بقلب آخر أقل تلفا .. رغم أن الزبون يدفع للأسطى ثمن قلب جديد ! والشيء الذى كان يدهشه أن الأسطى لم يكن يفعل هذا مع كل الزبائن .. وقد حاول حمادة أن يفهم سر هذا التمييز بين الزبائن فلم يستطع !

واليوم غادر الأسطى الورشة ليتناول غداءه .. بينما جلس الصبيان أمام أقراص الطعمية وأرغفة الخبز السوداء ككل

يوم .. وأخذوا يطلقون نكاتهم البذيئة على الرائح والغـــادى .. وكانت أصواتهم تزداد وقاحة إذا كانت المارة فتاة .. فإذا جـــاء زبون أخذوا يهذرون .. وكل واحد يطلب من زميله النهوض .. ولابد من حدوث أحد أمرين .. أن ينصرف الزبون قرفانــــا .. أو يزجرهم بعنف فيهبون جميعا ! وقد حــدث مــرة أن رآهــم الأسطى فضربهم جميعا بلوح خشب لاعنا آبــاءهم وأجدادهــم ومن نفضهم ! ولم يفهم حمادة لماذا يغضب الأســـطى لأنــاس يغشهم ؟!

أشارت بأناملها الطويلة للصبيان الجالسين .. وخشخشـــت لهم بالمفاتيح .. بدأ الهذر والتباطؤ .. تذكر حمادة علقــة لــوح الخشب فنهض يمسح كفيه فى بنطلونه المزيت قبل أن يتنـــاول المفاتيح ويفتح حقيبة السيارة ويخرج الإطار .. بصوت يرتعش رقة قالت :

ــ غير القلب يا ...

صاحت أصوات نشاز :

ــ حمادة .. حمادة يا أبلة

لم يكمل حمادة طعامه وبدأ فى فك الإطار فورا .. رمـــى القلب جانبا وأحضر قلبا آخر به رقعة واحدة فقط .. وقبـــل أن يحشره داخل الإطار أصبح به رقعتان ..

تناول الأسطى بعد عودته .. ثمن القلب الجديد (القديـــم) من أحد صبيانه فدسه فى جيبه .. بينما جلس حمادة على الحجر يتأمله .. كان يريده أن يغادر .. هو دائما يريده أن يغـــادر .. يشعر بالأمان وهو بعيد .." متى ستصبح ؟ هيا ..اشــتم " هــو دائما ينتظر أن يشتم !

عاد لأمه حاملا جنيها إضافيا منحتـــه لـــه ذات الأنـــامل الرقيقة .. دسته أمه فى صدرها قائلة :

" ياما جاب الغراب لأمه "

ابتسم حمادة لدعابة الأم ..

ـــ أريد البنطلون يا امه

= هو لمصطفى

هوى قلب حمادة ..

ـــ مصطفى كالبرميل ولن يدخل فيه ..

= سنوسعه ..

ـــ لكنه على مقاسى ..

= ستشحمه و ستزيته !

ـــ والنبى يا امه

= مصطفى حلاق ياحمادة وشغله نظيف ..

ـــ أريد أن ألبس شيئا نظيفا .. نفسى يا امه

= الملابس معك لاتكون نظيفة أبدا !

ـــ هذا بسبب العمل فى الورشة يا امى ..

= دع النظيف إذن لمن يعمل عملا نظيفا

" ملعون أبو الورشة "

وقفت سيارة صاحبة الأنامل الرشيقة فى اليوم التالى أمـــام الورشة .. جرى حمادة نحوها مبتسما .. عبست فى وجهـــه .. اختفت رعشة صوتها الجميل :

ـــ امش هات الأسطى

اضطرب القلب الصغير

الصوت الرقيق صار مريعا

ـــ سأقفل لك ورشتك .. سأخرب بيتك !

صوت الأسطى صار راجيا

= أنا تحت أمرك يا أستاذة .. ماذا حدث ؟

ـ ماذا حدث ؟ اسأل الحرامية الذين تشغلهم !

سقط قلب حمادة فى قدميه .. تراجع مجعدا جبهته رافعا ذراعيه ليحمى وجهه من الضرب ..

ـ والله ما أخذت شيئا

لحقت به كف الأسطى الغليظة وجرته .. وعاد الصوت خشنا

ـ ماذا عملت يا ابن ال (...)

= والله ما عملت شيئا !

كومه بركلة من قدمه المعلقة بساق فيل ..

بدأ صوت ذات الأنامل يرق وتعود له رعشته

ـ أطرده .. سينفر زبائنك

= ماذا عمل يا أستاذة ؟

ـ وضع لى قلب إطار قديم على أنه جديد ..

= يا نهار أبوك أسود !

طاخ .. طراخ .. بوم

ـ حقك على يا أستاذة

تكوم حمادة فى ركن الورشة يبكى ويتوجع .. والأسطى يدخن الشيشة ويحكى لشريكه :

ـ ابن الكلب كان سيخرب بيوتنا

= عيل .. غدا يتعلم

ـ حمار .. مائة مرة أقول له : نمر القاهرة قلب جديد .. الجيزة قلب جديد .. نمر الصعيد واسكندرية قديم .. فلن يأتوا من آخر الدنيا لمشاجرتنا !

= حصل خير

ـ نعم .. الحمد لله .. ربنا ستر !!

أكتوبر ١٩٩٩



صفحات من تاريخ كفر الشهاينة

- ١ -

لم تبق غير خمسة أيام وتقع الفاس فى الراس ..
ماذا أستطيع أن أفعل ؟

صورة جمـــال عبد الناصر مازالت معلقة علـــى الجــدار الطينى فى الدار .. اصفرت الصورة .. انثنت أطرافها داخـــل زجاج البرواز المشروخ .. ومـــازالت معلقـــة .. جـــدى فـــى الصورة يمد يده ليتسلم عقد تملك الأرض .. ذراعه الممـــدودة لآخرها .. وميل جذعه للأمام يظهران كم كان متعجلا القبـــض على الورقة .. وأنا صغير سألت نفسى :

هل كان جدى يتعجل الحصول علـــى الأرض ؟ أم كـــان يتعجل التقاط العقد لأنه لايصح أن يتمهل ويد الرئيس ممـــدودة إليه ؟

سألت جدى يوما :

ـ ماذا تغير بعد أن حصلت على الفدادين الخمسة ؟

نظر إلى دهشا وقال فى استغراب :

ـ أصبحنا أصحاب طين !

نصيب أبى من طين جدى .. بعد أن فرق الأرض على أبنائه الستة عندما تقدم عمره وتدهورت صحته .. كان عشوين قيراطا ملكا .. أما باقى الأرض التى نزرعها فكانت مؤجرة من الشيخ على .. من قبل أن أولد ..

لما كنت صغيرا – أنا وشاهين صديقى – كنا نقطع الطريق الطويل المترب .. ثم نعبر الأسفلت .. ونسير فى طريق مترب آخر حتى نصل للمعدية .. فنعبر الرياح إلى المركز .. ونسير فى شوارعه نشم رائحة الطعمية والفول المكمور داخل قدوره المنتفخة .. حتى نصل إلى المدرسة .. كنا نسلى أنفسنا بالحديث .. سألته :

– لماذا لاتعلقون صورة جمال عبد الناصر وهو يسلمكم عقد تملك الأرض ؟

أجابنى :

– جدى لم يكن عامل زراعة

أشفقت فى نفسى على عائلة شاهين صديقى

فى بعض الليالى .. حين نتحلق حول أبى ليحكى لنا عن الباشا شاهين .. الذى أسمى نصف أهالى كفرنا أبناءهم شاهينا على اسمه .. والذى كان جدى وأبى وهو صبى أجيرين فى أرضه .. كان جدى الجالس على الفرن ملتحفا بغطاء رمادى خشن .. يطل علينا بعينين ذابلتين .. ويستمع لأبى فى رضا .. يمتص عذوبة الماضى الجميل .. ويشرق وجهه المتغضن بنفحات الأيام الندية ..

" بنات الباشا شاهين كن كحوريات الجنة .. يملأن الكفر نورا .. وكنا نستمتع بملاحظتهن .. ونشغف بسماع أصواتهن المغردة اللينة .. وكلماتهن الخفيفة .. وكان الباشا شاهين – حين تنزل زوجته وبناته الكفر – يفرق علينا القماش

والطواقى والمناديـــل المطرزة بالخرز .. حتى لو نزلن الكفــر كل أسبوع ! "

جدى يجـــتر ذكريـــات المـــاضى الطيـــب .. لا تفارقـــه ابتسامته .. ولانسمع له صوتا مادام أبى يتحدث عن الباشـــــا وأســـرته إلا فى حالة واحدة .. إذا ذكر أبى اســـم شـــاهين مجردا من لقبه " الباشا " ..

ــ الباشا شاهين ياابو ابراهيم !

كان جدى يقولها فى عتاب !

كثيرا ماسألت نفسى :

ــ لماذا وافق جدى أن يأخذ من أرض الباشـــا مادام يحبـــه كل هذا الحب ؟

. . . . .

لم تبق ســـــوى خمســـة أيام وتقع الفـــأس فى رأس أبـــى كما وقعت من قبل فى رأس الباشا ..

ســـألنى شـــاهين صديقى :

ــ ماذا ستفعلون ؟

ضحكت وقلت :

ــ كما فعل الباشا !

نظر إلى وسكت !



فى احدى الليالى السابقة لوقوع الفأس فى رأس أبى .. كنا جالسين فى الدار نتناول عشاءنا .. خبزا جافا .. وجبنا قريشا .. وأعوادا من الجرجير والفجل .. سألت جدى :

— ماذا كنتم تتناولون فى عشائكم وأنت فى مثل عمرى ياجدى ؟!

ابتسمت عيناه الطيبتان :

— ماذا تظن ؟ الأوز المحمر؟

تدخل أبى قائلا :

— كنا نتناول وجبتنا الدسمة فى العشاء .. وفى وقت الغذاء نأكل أى لقمة ! فلم نكن قد بنينا هذه الدار بعد .. وكان بين الأرض والدور مسافة طويلة من الحقول الواسعة .. فكنا نأكل فى الغيط لقمة بجبنة حتى نعود للدور مع الغروب .. فنتناول عشاءنا الدسم !

ضحك جدى بصوت مبحوح واهن وتساءل :

— عشاؤك الدسم ؟

ثم أردف وقد دمعت عيناه الذابلتان من الضحك :

— كانت جدتك تطهو لنا أحيانا بالطماطم .. وبدون لحم .. كانت رائحة طبيخها تفتح النفس .. وفى بعض ليالى الجمع كانت تذبح دجاجة أو إوزة و " نزفر " أيدينا وأفواهنا بها !

— أمى أيضا تطهو لنا باللحم أو الدجاج يوم الخميس ياجدى ..

— الناس هم الناس يا ابراهيم ..

تســاءلت في نفسي : لماذا يبدو جدي في الصورة ســعيدا غايــة الســعادة ؟
عاود أبي الحديث :
ــ لكنا اليوم نعيش وســط أرضنا .. بنينا هذه الدار فيــها وصرنا نأكل طبيخا في الظهر كما يأكل أهل المدن .. ثم نخرج ثانية الى أرضنا .. الله أعلم بما ســيحدث غدا ؟
أبي يعود لنفس الموضوع دوما .. جميع الطرق توصلــه لنفس النقطة .. الفأس التي ســوف تقــع فــي رأســه بعــد أيــام ..
قال جدي في ضيق :
ــ وهل قال لك أحد أن تبني بيتك في أرض بالايجار ؟
رد أبي
ــ الكل بنوا مثلي
قال جدي منهيا الحديث :
ــ لم تروا الا تحت أقدامكم ..
سألت نفسي : أين ذهبت الحقول الواسعة التي يقول أبــي أنها كانت تفصل بيننا وبين دارنا القديمة المتهدمة .. جميعــها صارت بيوتا ؟ وسكان هذه البيوت كلها .. أين أرضــهم التــي يزرعونها ؟! وهل كان الباشا شاهين سيبني كل هــذه البيــوت على أرضه الخصبة لو ظل هو صاحبها ؟
أفقت على صوت أبي يهمس ..
لا أحد يحمل الهم غيري !

في الليلة الســابقة لوقوع الفأس فى رأس أبــى .. رأينــا علىشــاشة التلفزيون الجرافات وهى تهدم المنــازل وتطــرد ســاكنيها ..
ســألنى جدى :
ـ أين يحدث هذا ياابراهيم ؟
= فى اســرائيل ياجدى !
رد وقد اطمأن :
ـ ظننته فى كفر الشهاينة !
ســمعنا صوت أبى :
= غدا يابا .. غدا
ســألنى جدى ..
ـ لماذا يطردونهم ياابراهيم ؟!
ســمعنا صوت أبى :
= منهم لله !
رددت على جدى ..
ـ لأنهم يقاومون الســلطات الاســرائيلية المحتلة .. هكذا قال لى شــاهين ياجدى .
= يطردونهم لأنهم يطالبون بأرضهم وحقهم ؟!
ـ نعم ياجدى ..
= الدنيا مليئة بالعجائب .. هل تدرى ياابراهيم ماذا فعــل الباشا شاهين لما أدرك أنهم ســيأخذون منه أرضه ؟
ـ ماذا يا جدى ؟!
= باعها بنفسه لناظر زراعته الشيخ على وأقاربه وأولاده !
ـ الشيخ على الذى سيتسلم أرضه منا غدا ؟

= نعم ياولــدى .. اشترى هو وأقربـــاؤه معظـم أرض الباشا .. بدون مقابل .. ثم أجروها لنا ولغيرنا ولم يســتطيعوا الانتفاع بها بعد ذلك ..

صرخ أبى :

ـ يكفى يابا .. هل ســرقناهم ؟! هل ســرقنا الباشــا ؟

رد جدى فى تسليم :

= لا ياولدى !

استمر أبى :

ـ هل غششــت وزورت لأحصل عليها .. ألم يكن هــذا حقى الذى أعطتنيه الحكومة ؟! والارض المؤجرة اذا لم تكــن حقى .. لماذا تركوها لى ؟!

رد جدى :

= اهدأ ياولدى

استمر أبى :

ـ لماذا تركونى أظن أنها أرضى حتى خيبت أولادى ولــم أعلمهم فى المدارس ليزرعوا معى الأرض ؟ لمــاذا تركونــى أتصرف وكأنها ملكى مادامت ملك غيرى ؟

رد جدى وقد اغرورقت عيناه بالدمع ..

= هى الدنيا ياولــدى .. يوم لك ويوم عليك ..



لما حكى لى شاهين صديقى يوما أن صاحب مصنع السجاد الذى يعمل به يمتلك طائرة قفزت الى ذهنى صورة الباشا شاهين .. ولما قال لى أنه أغنى من الحكومة .. ظننت أن صديقى يريد أن يتباهى أمامى .. وأن يعيرنى بجهلى وبأننى لم أكمل تعليمى فى المدارس مثله .. ولم أعمل فى المصانع أو أعش فى المدن ..

لكنهم الآن يقولون نفس الكلام .. ونحن نترقب قوات الأمن التى ستنزل كفر الشهاينة لتنتزع الأرض من مستأجريها .. أبى جالس فى الأرض السوداء الطيبة واضعا رأسه بين كفيه .. وجدى متكوم الى جواره يرقبه بقلب مفطور .. والناس لا يقر لهم قرار .. أرسلوا أفرادا يستطلعون ظهور قوات الأمن الزاحفة الى الكفر ..

تخيلت الباشا شاهين حين علم أنهم سينتزعون أرضه .. هل جلس هكذا فى الطين مثل أبى واضعا رأسه بين كفيه ؟ أم جلس على الكرسى الفخم مسندا مرفقيه الى المكتب الفخم واضعا رأسه بين كفيه ؟! والشيخ على .. ماذا كان يفعل حين كانت تعوزه النقود فى زيجات أبنائه ويأتى لأبى راجيا اياه أن يبيع فدانا من الأرض التى " يركبها " .. فيرفض أبى ! هل كان يضع رأسه بين كفيه فى استسلام ؟

الكلمات تتطاير إلى أذنى :

— قم يا أبا ابراهيم .. لاتجلس هكذا فى وسط الأرض ..

صوت جدى الواهن يتوسل :

— اخز الشيطان ياولدى من أجل خاطرى وخاطر عيالك ..

رأينا أخى مصطفى يجرى معفرا التراب حوله مشـــمرا جلبابه وهو يصيح :
ــ جاءوا يابا .. جاءوا يابا ..
اتجهت الأنظار ناحيته .. التراب الثائر خلفه ينذر بزحـف حشـود القوات التى سـتقتلعنا من الأرض .. جذبنى شـاهين من ذراعى لما انتفضت مندفعا ناحيتهم .. أبى مـازال مخفيـا رأسـه بين كفيه .. نهض جدى :
ــ قم يا أبا ابراهيم .. اخز الشـيطان يا ابنى ..
" اذا كان أبى ينوى المقاومة .. فلأفعلها أنـا .. أبـى لا يحتمل خبطة من تلك الهراوات الغليظة "
تأتينى كلمات كثيرة .. أسمعها ولا أعيها ..
ــ أين كانوا طوال السنوات الماضية ؟
ــ لكل شيء آخر فما أكثر ما انتفعوا بهذه الأرض ..
ــ خذ الأرض .. هات الأرض .. كلام فارغ ..
ــ وهل كانت أرض الشـيخ على حقا ؟ أقسـم بالله أن أبا ابراهيم أحق بها منه ..
ــ اذن فكل مستأجر أحق بالشـىء الـذى يؤجـره مـن صاحبه !
نزل الشـيخ على وأولاده من السـيارة ..
ونزلـت قـوات الأمـن بـالدروع والـهراوات .. و.. السـلاح !
انتفضت مرة أخرى فاشـتدت قبضـة شـاهين علـى عضدى ..

أطلت علينا وجـوه الضبـاط المتغطرسـة .. ووجـوه العسـاكر التى تشـبه وجوهنا .. التف اخوتـى حـول أبـى الجالس فى وسط الأرض واضعا رأسه بين كفيـه .. اخوتـى

يحملون عصيا غليظة وينظرون فى تحفـــز .. مـــازال جـــدى يتوســـل ..

ــ لاجل خاطر العيال يا أبا إبراهيم !

الصمت أغرق كل من كانوا يثرثرون ..

" لماذا لم يفعل الباشـــا شـــاهين مثلما فعل أبى وقد كـــان هو صاحب الأرض وليس مستأجراً لها ؟ "

نزلت الجرافات إلى الأرض لتحرث الذرة التى سارع أبـــى بزراعتها كى يؤجل تسليم الأرض حتى جنيها ..

اشـــتدت قبضة شـــاهين على ذراعى ..

الناس تردد .. لاحول ولاقوة إلا بالله ..

" إن كان أبى سيفعلها فلأفعلها أنا .. مَنْ لإخوتى بعده ؟ "

أترقب أن يرفع وجهه لأرى ما ينويه ..

خفضت الجرافات أســـلحتها لتبدأ فـــى ســـحق الـــزرع وتقليب الأرض .. تأهبت .. توترت كل عضلاتى ..

بدأت الجرافات تهتك الأرض ..

رفع أبـــى وجهـــه .. عينـــاه حمـــراوان .. دامعتـــان .. مستســـلمتان ..

ألقيت عصاى .. جريت أرفعه مـــن أمـــام الجرافـــات .. وجدى يهمس مواســـياً ..

ــ لا تحزن ياولدى .. قد تعود لك يوماً ..

مارس ١٩٩٨



حصان حلاوة

بكت وصرخت حتى اجتمع الناس حولنا ..
ـ يريد أن يخرج ..
اتسعت العيون ورمتنى بنظرات مذعورة ..
استأنفت زوجتى :
ـ يريد أن يأتى بحصان حلاوة !
ضربوا كفا بكــف .. هــزوا رؤوســهم ومصمصــوا شفاههم ..
أشارت إلى الكيس الذى أحمله :
ـ انظروا هاهو يحمل زاده ليبدأ رحلته .. ســيرحل .. سيتركنى وأولاده نموت جوعا ولن يعود ..
أولادى متشبثون بأمهم .. أنصاف عرايــا .. رؤوســهم معفرة .. ضلوعهم نافرة .. دموعهم تختلط بمخــاط أنوفــهم الذى يمسحونه بظهور أكفــهم الســوداء .. لابــد وأن آتــى بالحصان الحلاوة .. سيذوق أولادى طعم السكر .. سأكســر لهم ذيله وأرجله وأدس قطعة قطعة فى أفواهــهم الصغــيرة المحرومة .. ستتلوى ألســنتهم فــى تجــاويف أفواهــهم .. ستندهش خلايا التذوق من الطعم السكرى !
جذبتنى يد من ظهرى فتمزق قميصى البالى .. زوجتــى تمنعنى ويزداد صراخها .. حاولت أن أتخلص من قبضة يدها

التى أطبقت على معصمى فلم أستطع .. تخشب كفها الأسمر الخشن المعروق على معصمى ..

ـ لمن ستتركنا ؟

نظرت إلى الوجوه الكثيرة المحيطة بنا .. رموا نظراتهم إلى الأرض وأحنوا رؤوسهم .. جررتها معى .. هى تمنعنى وأنا أجرها .. مات كفها وتصلب على معصمى .. لابد وأن آتى لهم بالحصان الحلاوة .. سأصعد الجبل .. وحين أهبط إلى الجهة الأخرى سأكون فى المدينة الكبيرة .. وسآتى بالحصان .. سأذيب قطعة منه فى الماء وأصنع لأولادى الألماسية الحمراء !

ـ لانريد .. الجبل كله وحوش ..

نبهتنى كلمات زوجتى .. كنا قد ابتعدنا عن المتفرجين .. صاروا نقاطا سوداء بعيدة .. وأبنائى توقفوا واحدا تلو الآخر عن متابعتنا .. أراهم على أبعاد مختلفة .. وزوجتى التى مازالت تقبض على معصمى سقطت وصرت أجرجرها على الأرض فيحفر الحصى فى جسمها خطوطا دامية .. وهى تردد : الوحوش الوحوش ! لكن سكينى معى .. وسأصعد الجبل .. وسأقتل أى وحش يقابلنى .. لن أعود بغير الحصان الحلاوة ! سأحكى لأولادى حكاية الفارس راكب الحصان الذى انتزع مكانته بسيفه .. سأقول لهم كيف واجه أعداءه وقهرهم .. وكيف رفع رأس أمه الشريفة ؟

أوقفنى فجأة شئ ما .. رأس زوجتى ارتطم بحجر ضخم .. مازال كفها مطبق على معصمى .. انسلخ جلدها من احتكاكه بالأرض .. وقفت أتأملها .. بدأ رأسها ينزف .. رجوتها :

ـ دعينى وسأعود .. صدقينى

اتسعت حدقتاها .. أصدرت أنينا موجعا .. أكدت لها :

ــ سأعود ..

ارتخت قبضتها .. خلصت معصمى منها .. أصابعها تركت علامات زرقاء على جلدى .. همست فى أذنها :

ــ انتظرينى هنا

تركتها عند سفح الجبل .. وبدأت أصعد .. أخرجت سكينى من الكيس وأشهرته مستعدا لقتل الوحوش .. عيناى تدوران فى كل اتجاه .. أذناى تتحفزان لالتقاط أى صوت .. وكفى مطبق على السكين .. الشمس ترمقنى قبل أن تغيب .. تتشبث بحافة الأفق وتنظر إلى فى دهشة .. سأحضر أكبر حصان ليستطيع أطفالى تأمل ملامح الفارس المغوار .. سأريهم سيفه المشهر .. وذراعه القوية .. سيرون فى عينيه الشجاعة والبطولة .. سيتعلمون منه كيف يمتطون ظهور الجياد ويقطعون رؤوس الأعداء .. وكل هؤلاء الخائفين الذين تركتهم ورائى سيعرفون أن هناك شعورا آخر غير الخوف يمكنهم أن يشعروا به .. لن أنظر خلفى .. زوجتى ملقاة عند السفح .. لن أسمح لشفقتى أن تمنعنى عن الهدف .. سأعود سريعا .. سأحملها على كتفى .. سألملم أطفالى .. سألتقطهم واحدا واحدا .. وحين نصل إلى أطلال عشتنا .. سأفتح الكيس .. وأخرج الحصان .. أكاد أسمع صهيله .. وصيحات الفارس أبى زيد فى ساحات الشرف .. سيرى الجميع كره وفره .. وسيتساءلون كيف يتحكم أبو زيد فى حصانه وسيفه ؟ لكنهم سيتعلمون !!

هرولت حين بدا أمامى انحدار الجبل نحو المدينة الكبيرة .. تلألأت أمامى أنوارها .. رأيت أبراجها التى تخز الهواء فى تأفف لتبعده عنها ! جريت هابطا الجبل ..

تعثرت .. تدحرجت .. تخبطت فى الأحجار .. ارتطمت بجدار أبيض عال .. اعتدلت واقفا .. وضعت سكينى الذى لم أستخدمه فى الكيس . سكينى الذى خافت وحوش الجبل من بريقه !

المدينة الكبيرة سوق .. كلها سوق .. كل شئ يباع وكل شئ يشترى .. ومن يشترى يبيع ماشتراه .. ومن يبيع يشترى ما باعه ! طعام وشراب وملابس .. أطفالى بلا ملابس ؟ جوعى ؟ لكنى لن آتى إلا بالحصان ! أشياء غريبة تباع وتشترى .. لاأعرف ما هى ؟ اللامع والمطفأ .. الفاتح والداكن .. الكبير والصغير .. لايهمنى .. المهم أن أجد بائع الأحصنة .. ألف وأدور .. أعود من حيث بدأت .. تحملنى الطرقات الملتوية إلى أماكن غريبة .. يبيعون شعور النساء ولحوم الصغار .. يشترون القلوب والأكباد .. أجرى .. أفر من رائحة الدم .. تكل قدماى .. أجرجر ساقاى .. لن أستريح فى مدينة الرعب هذه .. سأشترى الحصان وأعود فورا .. منظر الأحصنة الحمراء أنسانى تعبى .. جريت .. رمانى البائع بنظرة احتقار قاسية .. أشرت إلى أكبر حصان .. مد يده يطالبنى بالمقابل .. قلبت له جيوبى الخاوية .. قلت له أننى جئت من وراء الجبل .. حكيت له عن أطفالى وزوجتى .. قلب شفتيه فى قرف وأشار بكفه لكى أبتعد .. تراجعت خطوتين .. الدموع تتصاعد إلى عينى .. الفرسان يرمقوننى بعيونهم الجامدة .. يترقبون تصرفى .. مددت يدى فى الكيس .. أخرجت السكين اللامع الكبير .. قدمته للبائع .. قلبه بين يديه بتأفف .. مد يده إلى أصغر حصان .. دفعه إلى .. هززت رأسى رفضا .. فمد يده بالسكين .. أخذت الحصان الصغير .. تحاشيت النظر إلى عيون الفرسان ..

وضعت الحصان فى الكيـس .. جريـت عـائدا .. أطفـالى متناثرون فى البرية .. زوجتى ملقاة تحتضـر تحـت سـفح الجبل .. وحوش الجبل ستشم دماءها النازفة فتسـرع إليـها وتفترسها .. لكنى سأسرع .. سـأمتطى حصـانى وأشـهر سيفى .. وأقهر جميع الوحوش !

أبريل ٢٠٠٠



تعظيم سلام

" اعترف يا حيوان "

أمرني الرجل الذى يتدلى من كتفيه عنقودا عنب !

" تكلم أحسن لك "

هو يهددني .. مندهش أنا لمنظر العنب ..

طراخ !

صفعة دسـمة على وجهي .. جعلته يطـوّحُ ذراعه فيهتز العنب فوق كتفه .. وتسقط منه حبة ..

يدخل رجل يحمل على كتفيه قطفين صغيرين ..

ــ خذ هذا الحيوان وأدبه (وأشار إلى)

يأخذ الحيوان ! خارج الغرفة الجميـع يعلقـون عنبـا .. هاجمتني رغبـة عارمة فى الضحـك وأصـدرت أصواتـا مكتومة .. التفت إلىّ الرجل ذو القطفين الصغيرين

ــ مابك ؟

= مجرد زغطة ..

أجبته وأنـا أضع كفى أمـام فمـى لأدارى ضحكـى .. وصلنا إلى غرفـة رطبة .. وقفت فيها وحدى بينما انصـرف مصاحبي وأغلقها على ..

" عنب ؟ " .. تساءلت بصوت مسموع .. " ماالذى جـرى فى الدنيا ؟ "

دخل ثلاثة من حاملى العنب .. عـــاودتنى الرغبــة فــى الضحك .. لاحظها أحدهم .. سألنى عن سببها ..
ــ أبداً .. هى حالة تصيبنى أحياناً
" ألا يدرك هؤلاء الناس أنهم مضحكون ؟ "
ــ تعال
ذهبت إلى من دعانى
ــ اعقل وقل لنا الحقيقة
" الرجل جاد جداً .. هئ هئ .. "
مرة ثانية لاحظ أننى أضحك .. جذبنى من ياقة قميصى ..
ــ ماذا بك يا (...)
= لاشئ
ألح علىّ سؤال .. ماذا يعلق هؤلاء فى الشتاء ؟ برتقال ؟
ــ أحضر العدة
أصدر الأمـــر صاحب أكبر قطف عنب فى الثلاثـــــة .. خرج أحد الاثنين الآخرين .. وعاد بالعدة . هـــراوة .. سـلك كهرباء .. حبل .. كرباج .. شاى وســكر وموقــد صغــير .. ووضعهم عند قدمى !
ــ مارأيك ؟
= أهذا لى ؟
امتدت يد إلى الكرباج
ــ عرّه
عرّانى
طراخ .. طراخ .. تقع الضربــات أينمــا تقــع .. علــى ظهرى .. على رأسى .. على أى مكان لا يهم .. الأمر ليـــس هزارًا .. رغم عناقيد العنب !

ـ ماذا تريدون ؟
= أتستهبل ؟
ـ لا .. أبدا والله العظيم .. انتظروا .. كفى !
هم لايتوقفون !
ـ سأفعل ما تريدون
أشار كبيرهم بالتوقف ..
ـ ماذا تريدون ؟ (سألت فى فزع)
أشار مرة ثانية بالاستكمال .. وجلس يصنع لنفسه شايا !
قطوف العنب تهتز فوق أكتافهم .. عيناى لا تريان إلا اهتزاز حباتها ..
" أهم مجموعة من المخبولين ؟! "
هسيس الماء فى البراد جعلهم يتوقفون .. بدأوا فى صب الشاى .. وجلسوا فى ركن الحجرة يستريحون على كراس خشبية لم ألحظها إلا الآن .. بينما تقرفصت أنا فى وسط الحجرة ..
لم تعد عناقيد العنب تضحكنى .. هى علامة الخلل .. ترى ما الذى فعلته وأغضبهم ؟ آه لو أعرف !

فتح الباب فانتفض الثلاثة .. تحاملت على نفسى حتى وقفت .. دخل حامل العنقود الأكبر .. رفعوا أكفهم بالتحية ففعلت .. هؤلاء الناس لايجب اغضابهم أبدا ..
ـ ألم تنتهوا بعد ؟
= إنه يتغابى
ـ ستعترف .. شئت أم أبيت ! (قال حامل العنقود الأكبر موجها حديثه لى)
= والله العظيم أنا أريد أن أعترف
ـ و ماذا يمنعك ؟

= أنا لا أفهم ما الذى تريدوننى أن أعترف به ؟

ـــ اتفو ! تناثرت بصقته على وجهى ..

= أنا لا أستهبل .. والله العظيم لا أستهبل

أشار لهم بطرف سبابته .. ربطوا ذراعىّ خلف ظـهرى .. وربطوا قدمىّ فى بعضهما .. الكهرباء تنفض ذرات جسـدى .. إبرٌ حارة تنطلق فى عروقى .

ـــ سأعترف .. تشاجرت مع زوجتى أمس ..

ركلات توجع جنبى .. هذا الاعتراف لا يرضيهم ..

ـــ سأخفض صوت المذياع .. سأزور أمى ..

الكهرباء تزلزلنى ..

ـــ القمامة ! نعم القمامة .. أنا قذر .. لن ألقيها من النافذة .. لن أشخرَ وأنا نائم .. لن أتأخر فى الحمام

اعترافاتى لا ترضيهم ..

أشـــار حامل العنقود الأكبر بســبابته فتوقفوا .. لا أقـــوى على فتح عينى .. مكوم بلا أى قدرة على الحركة .. تعبـــان .. أريد أن أنام ! ركلة فى جنبى .. ركلة أخرى .. وثالثة ..

ـــ رد يا (...) .. أم تريد الكهرباء ثانية ؟

أصدرت أنينـــاً .. أدرت رأســـى بقـــدر مـــا اســـتطعت تجـــاههم .. حـــامل العنقود الأكبر يدخن .. الثلاثة يحيطـــون بى ! فكَّ أحدهم قيودى ..

ـــ اجلس

لم أســـتطع .. رفعنى أحدهم من تحت إبطى .. جرّنـــى إلى الجدار ورطمنى فيه ليسندنى ! الأربعة أمامى .. لابـــد أن أفهم .. لا .. ليس هذا وقت انهيار .. لابد أن أتماسك .. نعـــم ماذا فعلت ؟ نعم .. نعم .. سأتذكر .. مازالوا أمامى .. قطـوف العنب فوق أكتافهم .. العنب .. العنب .. نعم هو العنب !

ـــ سأعترف يا فخامة حامل العنقود الأكبر
نهض الرجل .. عناقيد العنب على كتفيه نقصت حباتـها .. استندت بكفى للأرض محاولا التماسك .. ففعصت بعض حبـلت العنب
ـــ تذكرت جريمتى
قلتها ببطء وصعوبة
= انطق .. أوَتَظُننا متفرغون لك ؟
ـــ أنا مجرم .. لن أفعل هذا ثانية .. لن آكل العنـــب بعـــد اليوم أبداً !
= العنب ؟
ـــ هو عنبكم وحدكم
يضحك حامل العنقود الأكبر
ـــ والله ما كنت أعلم .. كنت أظن أنكـــم تعلقـــون أشـــياءً أخرى !
= ماذا يقول هذا الأبله ؟
ينظرون إلى بعضهم ويبتسمون
ـــ عندكم كل الحق .. ماذا سيكون الوضع إذا أكل النـــاس كل العنب وصنعوا منه الزبيب والمربى والعصير ؟!
= ما لنا والعنب يا أهبل ؟
ـــ مالكم والعنب ؟ بماذا إذن ستزدان أكتافكم ؟ أنا والله مـــا كنت أعلم
= أوترى عنباً على أكتافنا ؟
ـــ إنه لم يخلق إلا لكم
= العنب ؟
ـــ نعم .. أكثر الله من عناقيدك يا فخامة حـــامل العنقـــود الأكبر !
= إذن فهذا (وأشار إلى كتفه) عنب !

ـ عنب طازج لن يتحول إلى زبيب أبداً
= زبيب ؟!
ـ نعم زبيب ! أطال الله مدة خدمتك يـــا فخامـــة حـــامل العنقود الأكبر

= ما الذى حدث له ؟
ـ لوثة .. مجرد لوثة .. سيفيق منها حالا

أخذونى لأفيـــق .. وفى طريقى كنـــت أفعـــص بحذائـــى حبـــات العنب المتناثرة هنا وهناك !

أكتوبر ١٩٩٨

فهرس



رقم الإيداع
٢٠٠٠/١٦١١٢
الترقيم الدولى
977 - 08 - 0967 - 5